رواية

حارة السقايين

خميس السنهورى

obeikan.com

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : حارة السقايين
المؤلف : خميس السنهورى
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : مصطفى الدناصورى
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٣٣٩٥ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 425 - 4

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

الإهداء

إلى روح زوجتي وأم ابني : شيماء علي

وإلى والدتـــي، وزوجتي الحالية أدامهما الله لي عونًا

على كل نجاح .

obeikan.com

obeikan.com

حارة السقايين عبارة عن لافتة صغيرة من الحديد الذي قد تآكل بفعل الزمن، وبفعل الصبية التي تقذف تلك اللافتة بالحجارة، ولم يبق منها سوى أحرف قليلة، لا يختلف حال تلك اللافتة عن حال الجدار الذي وضعت فوقه؛ فكلاهما قديم قدم الحارة وأهلِ الحارة. لافتة صغيرة تعبر عن أفراح وأحزانَ كبيرة داخل أهل الحارة، تلك الحارة التي ضربها زلزال الفقر والتخلف والجهل، لم يتمرد أهل الحارة على ظروفهم، بل على العكس فقد تكيفوا معها، فأصبح الفقر عندهم نعمة، إنهم أفضل حالًا من الأغنياء الملاعين المرضى، وأصبح التخلف هو غايتهم والجهل صار إرثًا يتوارثونه أبًا عن جد، وبالرغم من أن مصر في هذا الوقت كانت خاضعة للاحتلال الإنجليزي إلا أن باب الحارة جعلها منعزلة عن مصر وهموم مصر واحتلال مصر. لقد كانت عزلتهم اختيارية؛ فوطنهم هو الحارة وجيشهم هم شباب الحارة، فهم المسئولون عن حمايتها وتأمينها.

لم تعطهم مصر شيئًا كي يدينوا لها بالولاء وربما تكون قد أعطتهم ولكنها عقيدة عندهم السياسة كفر البعد عنها غنيمة، مصر في نظرهم لم تعطهم شيئًا سوى صنبور للمياه العذبة يشربون منه ويملأون قربهم ليبيعوا الماء للآخرين .

باب الحارة باب خشبي ضخم ولكنه يحمل هموم السنين، وشهادة التاريخ ونتوءات العمر محفور على إحدى ضلفتي الباب، اسم الحارة بخط جميل وواضح، وكذلك

اسم الصانع محيت الأرقام التي تدل على عام الصنع، ولكن عبق الخشب يدل على أنه قد تجاوز المائة عام.

يالـه من باب عجيب ماذا يحمي ؟ ومن يحمي ؟ وممن يحمي؟ فأهل الحارة بفقرهم ليسوا مطمعًا لأي لص، وهم بعيدون كل البعد عن افتعال المشاكل مع الآخرين، تضاربت الأقوال بين أهل الحارة عن سبب وجود ذلك الباب الذي يشبه باب السجن، ولكنهم أحبوه لأنه عندما يتم إغلاقه يشعر الجميع بالأمان، ترى هل هم مهددون؟ لا أظن، ولكنه الخوف عند الإنسان الذي يدفعه إلى الاختباء. تقول أساطير أهل الحارة وكلها وبمجرد سماعها تدل على جهل وسذاجة مفرطة من الراوي معظم هذه الروايات مصدرها عم قطب ذلك الرجل العجوز الذي رسم الزمن فوق جبينه أعظم لوحة للشيخوخة ووقارها وألبسته السنون ثوبًا كثيفًا من الشعر الأبيض يغطي رأسه ولحيته وعينيه .

عم قطب هو حامل أسرار الحارة وراويها، الكل يصدِّقه ويهابه، وهو أيضًا مسئول الأمن بالحارة وشيخها، يكفي أنه المسئول عن باب الحارة يفتحه بعد صلاة الفجر ويغلقه بعد صلاة العشاء. بين هذين الوقتين لا خروج ولا دخول للحارة إلا من عم قطب أو من مأمور المركز، وبالرغم من صعوبة الحصول على تصريح مأمور المركز إلا أنه مجاني، فتصريح عم قطب غالبًا ما يكون مصحوبًا بوجبة دسمة يتناولها بمنزل طالب التصريح، كما أن لِعم قطب مكانة

دينيـة في الحـارة، فهـو موقـظ النـاس لصـلاة الفجـر حيـث يسـير يوميًـا قبـل الصـلاة لينـادي بصوتـه العـذب علـى كل صاحـب دار باسمـه ليوقظـه لصـلاة الفجـر .

مـن يـرى البـاب مـن الخـارج لا يـرى مـا يخفيـه في الداخـل مـن بيـوت متهالكـة، وأكـوام قمامـة، وأنـاس لا يقـل مظهرهـم رثـةً عـن بيوتهـم، ويسـمى كل منـزل باسـم العائلـة الـتي تسـكنه، مثـل منـزل عاشـور الجـزار ومنـزل كوهـين اليهـودي ومنـزل الشـيخ محمـد الضريـر ومنـزل الدمنهـوري .

ليـل الحـارة هـادئ جميـل، لايقطـع سـكونه سـوى صـوت عـم قطـب وهـو ينـادي ويوقـظ للصـلاة، يتوافـد المصلـون علـى المسـجد تباعًـا لإقامـة الصـلاة ثـم يصلـي معهـم ويكـون الإمـام هـو الشـيخ محمـد الضريـر، ذلـك الرجـل الـذي زهـد العـالم واتخـذ مـن بيـت اللّه سـكنًا ودارًا للعبـادة، وربمـا سـبب نومـه في المسـجد أنـه لا مـأوى لـه غـيره، فالشـيخ محمـد لم يتـزوج ويعيـش علـى العبـادة ومسـاعدة أهـل الخـير لهـم عندمـا يقـرأ لهـم القـرآن في كل مناسـباتهم، الـكل يحـب الشـيخ محمـد لمـا لـه مـن بديهـة حاضـرة وخفـة ظـل يتمتـع بهـا معظـم مـن حرمهـم اللّه مـن نعمـة الإبصـار؛ فهـو يتهكـم علـى نفسـه وأيضًـا علـى غـيره، يخـرج الجميـع مـن المسـجد يتصافحـون ويتناقشـون ويتوجـه عـم قطـب ليفتـح بـاب الحـارة معلنًـا بـدء يـوم جديـد ولسـماح للسـكان بالدخـول والخـروج بـكل حريـة وهـو يذهـب إلى داره حتـى يخلـد إلى النـوم حتـى يحـين آذان الظهـر .

مع أول خيوط الصباح أول صوت تسمعه في الحارة هو صوت علي السقا ورفاقه السقائين، يحملون قربهم الخاوية ويتوجهون إلى صنبور المياه الموجود بالحارة ليملأوا قربهم ويحملوها كهمومهم ويسيروا بها لمن يرغب في أن يملأ الماء، وكان من ضمن المتعاملين معهم هو مأمور المركز والذي يتصف بالجدية والحزم والالتزام حتى أنه قد نال حظًا من اسمه فاسمه شريف بك. وقد اختص شريف بك عم علي السقا دون غيره من السقائين بأن يدخل بيته ويمده بالماء لما عرُف عن عم علي السقا بأنه ذو أخلاق طيبة وأمانة جعلت شريف بك يأتمنه على دخول بيته فيحمل عم علي قربته ويذهب بها في خطًى ثقيلة، فلقد أجبر السن ووزن القربة الثقيلة عم علي ألا يسير بسرعة كما كان، ولكنه دومًا بشوش يحمد الله على الصحة وعلى قدرته على العمل، وهو في سن السبعين، وبمجرد أن يصل عم علي إلى استراحة شريف بك يلقي قربته في كل الأواني الفارغة والمعدة لتخزين الماء الموجودة بالمنزل.

في هذا الصباح استقبله شريف بك مع ابنته زهرة الفتاة الجميلة ذات الستة عشر ربيعًا من العمر. ألقى عم علي التحية على شريف بك وابنته فرد شريف بك التحية هو وابنته وسأله عن أحواله وأحوال ابنه عادل، دعاه للجلوس معهم فاستحى عم علي من ذلك ولكن شريف بك دعاه للجلوس مع ابنته لأنها تريد أن يروي لها عم علي القصص

والأساطير التي تطايرت إلى أذنيها عن الحارة، وطمأنه شريف بك أن عطلة هذا اليوم سيدفعها هو له فشكره عم علي وجلس معه ونادى شريف بك على الخادم ليحضر لعم علي الإفطار، دقائق معدودة وكان الإفطار أمام عم علي. لم يصدق عم علي عينيه، وأن هناك أصنافًا أخرى من الطعام غير الفول والفلافل والجبن، وأخذ يأكل ويدعو لشريف بك ولابنته، وتمنى في نفسه أن يشاركه تلك اللحظات وذلك الطعام ابنه عادل وزوجته، وبعد أن فرغ من الطعام أمر شريف بك الخادم بأن يعبئ ما تبقى من الطعام ويزيد عليه كي يأخذه عم علي وهو عائد إلى بيته. لقد شعر عم علي بسعادة غامرة؛ فلقد تحققت أمنيته .

اصطحب شريف بك وابنته عم علي إلى غرفة الضيوف وجلسوا يتناولون الشاي المضاف إليه حليب، وبادره شريف بك بسؤال عن قصة باب الحارة أولًا فقال عم علي أنهم لا يعلمون شيئًا إلا ما قد سمعوه من أهلهم ومن الشيخ قطب، فلقد ورث حراسة الباب أبًا عن جدٍ، أما قصته فلا أحد يعلمها بالظبط، ولكن ما قيل عنه كثير؛ فهم يقولون إنه مع دخول الإنجليز لمصر ظهرت حركة مقاومة عنيفة ضد الاحتلال، كان مقرها حارة السقائين؛ مما دفع الإنجليز لعزل هذه الحارة حتى لا تنتشر المقاومة في الأحياء المجاورة، ومنهم من يقول إن هناك كنزًا في الحارة أسفل منزل الدمنهوري، ذلك الشاب البسيط صانع الأحذية،

وعندما شاع الخبر في كل المديرية رأى سكان الحارة أنهم أحق بالكنز من غيرهم، فقاموا بعمل باب للحارة لكي يحفروا دون أن يراهم أحد، واتفقوا فيما بينهم في حالة العثور على الكنز يتم تقسيمه على كل بيوت الحارة بالتساوي، وأردف قائلاً: إن كوهين اليهودي مؤمن بتلك الرواية، وهو يلح دومًا على الدمنهوري بأن يشتري منه المنزل بأضعاف ثمنه، لكن الدمنهوري يرفض لأن منزله ملاصق للمسجد فكيف يبيعه لذلك اليهودي اللعين .

انتفض عم علي من مكانه فجأة قائلًا لهم:

– بهذه المناسبة إني أدعوكما الشهر القادم لحضور مولد سيدي عماد الدين لتتعرفوا على الحارة عن كثب، ولكن شريف بك اعتذر بحجة انشغاله بعمله، ولكن زهرة ابنته ألحت على الذهاب، وكيف له أن يرفض طلب زهرة وهي ابنته الوحيدة، فما كان من عم علي إلا أن طلب من شريف بك أن يصحب هو معه ابنته زهرة يوم المولد وسيحافظ عليها وبمجرد انتهاء المولد سيعيدها له .

رحبت زهرة بالفكرة وتوسلت إلى أبيها بأن يوافق وتحت إلحاح من علي السقا وزهرة، وافق شريف بك فشكره علي السقا وانصرف فاستوقفه شريف بك وطلب منه أن يأخذ معه الأكل المتبقي، وانصرف علي السقا عائدًا لبيته يحمل بين يديه طعامًا من الجنة، هكذا يتصور ما يحمله وأصبحت

قدماه الضعيفتان تسابقان الريح لكي تصل إلى المنزل، فمن المؤكد أن زوجته روحية وابنه عادل سوف يطيران فرحًا عندما يتذوقان هذه الأصناف لأول مرة. لقد انفض السقائين عن صنبور المياه، وذهبوا لتوزيع ما في القرب من الماء، وبدأت النسوة في الخروج للصنبور إما لغسيل الأواني أو لأخذ المياه لبيوتهم، ومع توافد النساء توافد الشباب الأعزب لكي يداعبوا البنات اللائي يذهبن للصنبور، إنه المشهد المتكرر منذ سنين يرثه الأعزب ممن تزوج.

تقف البنات مع السيدات في دلالٍ وفرحةٍ، وكثيرًا ما كانت تحدث بينهن مشاجرات تنتهي بتقطيع ملابسهن، وتلك هي فرصة الشباب الذهبية لرؤية أشياء لا ولن يروها في حياتهم، فها هو عادل ابن علي السقا ونعمان الجزار ومعهما مسعود ذلك الشاب النحيل الماكر الذي لا يتورع عن فعل أي شيء كي يحصل على ما يريد، الكل يهاب ذلك الماكر مسعود لأنه على صلة وثيقة بأبو العز أكبر تاجر للمخدرات في المنطقة، ويعتبر مسعود كلبه الوفي وخادمه المطيع، فمن يحاول أن يؤذي مسعود كمن يحاول أن يؤذي أبو العز ومصيره معروف هو الخطف ثم تركه للكلاب، أقل ما توصف به أنها أسود وبعدها هو ومصيره .

يقف مسعود بكل وقاحة وتبجح يغازل بنات الحارة ونسائها وباقي الشباب يضحكون ويتغامزون معه، لكن

مسعود كان قلبه يعشق فتاة واحدة فقط هي نظلة بنت شفيق أفندي ذلك الرجل الذي اعتزل السياسة بعد القبض عليه أكثر من مرة، ثم فتح مكتبة صغيرة على ناصية الحارة. يالـه من حظ أوقع هذا المسكين وبنته في هذه الحارة الملعونة، تذهب نظلة إلى منزلها حزينة؛ فلقد استوقفها مسعود وجذبها من ملابسها يريدها أن تقف ليسمعها عبارات من الغزل المقيت، دخل عليها والدها وهي في غرفتها تبكي، وبمجرد أن رأته ارتمت في حضنه تبكي بحرقة، انزعج شفيق من منظرها وهدأ من روعها وطلب منها أن تروي له ما حدث ولكنها أنكرت وأدعت أنها حزينة لأنها تذكرت والدتها التي رحلت منذ ما يقرب من العامين .

لم يصدق شفيق أفندي ذلك وطلب منها أن تروي له ما حدث وأمام إصراره وغضبه لم تجد بُدًّا غير أن تروي له ما حدث من مسعود، وهنا ثار الأب وذهب ليرتدي ملابسه وينزل لتأديب مسعود فلقد كان شفيق أفندي موفور الصحة والقوة، إضافة إلى ذلك أنه من كثرة اعتقاله أصبح لا يهاب أي شيء سوى الله عز وجل، فتح الباب وابنته عالقة في يده تتوسل إليه ألا يذهب لمسعود، ولكن الأب يصر على النزول وينزل ليفتش عنه ويسأل كل أهل الحارة .

حتى نعمان صديقه لا يعرف أين هو، ولكن يُرجح أنه عند أبو العز، وعادل أيضًا لا يعرف، لكن ميمون القرداتي

شاهده وهو يسير ومعه اثنان تبدو على ملامحهما أنهما ليسا مصريين، يسيران نحو محطة القطار عندما كان ميمون بصحبة قرده يقومان بعمل استعراض للأطفال هناك في الشارع الكبير، فتركه شفيق وعاد لشقته ينتظر ويتربص لرؤية مسعود .

مجرد أن شاهد أطفال الحارة ميمون هو وقرده حتى أخذوا يهللون ويتوسلون له أن يقدم لهم أي فقرة من السحر والقرد، ولكنه عَنفهم وأمرهم بالابتعاد عنه لأنهم لم يدفعوا له مليمًا واحدًا وأن قرده لا يأكل التصفيق، وإنما يأكل الموز والسوداني وأن أهلهم جوعى لا يجدون ما يطعمون به أبناءهم، فكيف لهم بأن يطعموا القرد. استفز حديث ميمون إحدى النسوة فقامت بسبه واتهمته بأنه لص هو وقرده وأنها تشاهد كل ليلة بعد العشاء حين ينام أهل الحارة القرد يعلو أسطح المنازل ليسرق ملابس النسوة ويسرق بيض الدجاج، فما كان ميمون إلا اتهمها بالكذب، وتجمع النسوة يشكين ويأكدن سرقة ملابسهن الداخلية.

تجمهر أهل الحارة واقتادوا ميمونًا من رقبته حيث غرفته المتواضعة مصحوبًا بصياح الأطفال بأنه لص. فتح أهل الحارة الغرفة فإذا بهم يجدون الملابس الداخلية للنساء معلقة على الحوائط، ولكنه أنكر أن تكون تلك الملابس تخص نساء الحارة، بل هو يجمعها ليبيعها في الريف وبخبث ودهاء شديد سألهم: من يستخرج سروال زوجته من على الحائط

فليأخذه وفعلاً يكون هو السارق، لم يجرؤ أحد على أن يشير لسروال زوجته، وانصرفوا وهم يصبون غضبهم على ميمون وقرده اللعين، وذهب كلٍ إلى بيته يقص لزوجته كيف أنه وجد سروالها لديه ولم يستطع أن يبوح بذلك .

جو الحارة عمومًا يسوده الهدوء سوى بعض الصبية وهم يلعبون الكرة وسط لعنات الأهالي مطالبين بالهدوء، تبدو الحركة هذه الليلة على غير المعتاد في منزل عاشور الجزار والد نعمان، البيت كله مستعد والمذبح الخاص بهم جاهز وهم ينتظرون في قلق وترقب. الكل يترقب شفيق يترقب وصول مسعود، عاشور الجزار يترقب وصول أبو اليزيد العربجي المسئول عن نقل متعلقات أهل الحارة .

دعواتهم في تلك الليلة كانت متناقضة، فشفيق يدعو بأن يحضر مسعود ونظلة تدعو بألا يحضر حتى لا يتشاجر مع والدها. عائلة عاشور يدعون أن يحضر أبو اليزيد سالمًا .

كان قلب نظلة ينفطر إلى نصفين: نصف به لهفتها لرؤية مصطفى التي تعشقه في صمت، فهو للآن لم يفتح شباكه المواجه لغرفتها، والنصف الآخر خوف على والدها. ما هي إلا لحظات حتى احمر وجه نظلة وتبدل حالها فلقد رأت مصطفى أخيرًا يفتح شباكه فتنظر له باسمة وبأدب جم وخجل أكبر يلقي عليها مصطفى التحية لتردها عليه وتنصرف، لا، إنها تظاهرت أنها انصرفت إنها عادت

لسلوكها المعتاد وهي أن تراقبه من خلف ستارة نافذتها. للآن مازالت نظلة تعشق مصطفى من طرف واحد، فهو خجول جدًا ولن يبوح لها بما يخفيه قلبه، وهي كفتاة يمنعها حياؤها من أن تبوح له. لم تدم لحظات العشق الصامت هذه طويلاً فلم تهنأ نظلة برؤية مصطفى حتى رأت مسعود وهو يدخل الحارة ولكنها رأت عيني مسعود وقدميه قد تسمرتا نحوها هي ومصطفى، ونظر لهما بحقد وغيظ كبير معلنًا لهما أنه قد فهم أن ثمة علاقة بين الاثنين .

لم تكن نظلة وحدها من رأته، بل شفيق أفندي أيضًا الذي أسرع نحو باب شقته يريد يخرج ليؤدب مسعود، ولكن نظلة صرخت في مصطفى قبل أن يغلق نافذته بأن يلحق بِأبيها لأنه نزل للشجار مع مسعود وتتوسل إليه أن يمنع أباها من الشجار مع ذلك البلطجي.

نزل مصطفى مسرعًا خلف شفيق أفندي؛ فهو يحترمه ويقدره، ويعتبره المصباح الوحيد في جهل هذه الحارة وشيء مشرف للحارة وأهلها أن يكون من بينهم شخص مثل شفيق أفندي الذي ما إن رأى مسعود حتى صفعه على وجهه وسبه وأراد أن يفتك به، ومسعود قد ارتعب من شفيق أفندي لأنه يعلم ويسمع ما لشفيق أفندي من صولات وجولات في المقاومة ضد الاحتلال، ولكنه ظن أن السن قد جعلته جبانًا لكن قوة الصفعة أذهلت مسعود وزادته هلعًا،

ولـولا تدخـل مصطفـى في الوقـت المناسـب ومعـه عـم سـند المسـيحي لحـدث مـا لا يحمـد لمسـعود وشـفيق معًـا.

اصطحـب سـند ومصطفـى شـفيق لشـقته، ولم يجـد مسـعود أحـدًا ليواسـيه سـوى ذلـك اليهـودي كوهـين الـذي كان يتابـع الموقـف مـن نافذتـه. اصطحـب كوهـين مسـعود إلى شـقته، أخـذ كوهـين يوغـر صـدر مسـعود ضـد سـند ومصطفـى وشـفيق، وكيف أن هيبـة مسـعود قـد سـقطت وسـط الحـارة ولـن تقـوم لـه قائمـة إلا بتأديـب شـفيق وابنتـه. ثـار مسـعود معلنًـا لكوهـين أنه سـوف يقتـل شـفيق أفنـدي ولكـن كوهـين اتهمـه بالغبـاء لأنـه في حالـة قتلـه فسـيكون هـو المتهـم الوحيـد، وسـيتم إعدامـه، وطلـب منـه أن يتمهـل ووعـده بأنـه سـوف يسـاعده علـى الانتقـام، وكل ماعليـه هـو الصـبر. الصـبر فقـط.

المعسـكر الآخـر سـند ومصطفـى يهدئـون شـفيق ويذكرونـه بمكانتـه وسـنه، وأنـه لا يجـوز أن يتعامل مع ذلك السـفيه بنفس سـلوكه، وطلبـا منـه ضبـط النفـس والحكمـة وطلبا منـه أن يذهب لسـريره ويخلـد للنـوم وذهبـت نظلـة لوداعهم وحين التقـت عيناه بعيـني مصطفـى كان ذلـك بمثابـة مخـاض لأطهـر قصـة عشـق.

عـم قطـب أغلـق بـاب الحـارة كالمعتـاد ومـازال أبـو اليزيـد العربجـي لم يـأت بعـد، وكل عائلـة عاشـور الجـزار في انتظـاره بجـوار البـاب المغلـق وتمـر السـاعات حتـى تعلـن أصـوات الأجـراس المعلقـة في رقبـة حمـار أبـى اليزيـد عـن وصولـه ولكـن

الشيخ قطب رفض فتح الباب لهم فهددوه وهددهم بأن مسئول عن الباب أمام مأمور المركز، ومن يخالف ذلك سوف يبلغ المأمور بذلك، فتراجع آل عاشور عن لغة التهديد وراحوا يساومون قطب على فتح الباب مقابل رطل من لحم الضأن فوافق بلا تردد، وفتح الباب فإذا بعربة أبى اليزيد وقد امتلأت عن آخرها بخرافٍ وعجولٍ مريضة توشك على الموت، وعندما أراد أن يستعلم عنها عم قطب قالوا له إنها نائمة فالوقت متأخر والحيوانات تنام عند المغرب، وأنه أيضًا وجب عليه أن يذهب لينام ليوقظ الناس لصلاة الفجر ويذهب إلى السوق لشراء الخضار اللازم لطهو اللحم الذي سيحصل عليها.

في المذبح الموجود ببيت عاشور سأل عاشور أبا اليزيد عن سبب التأخير فأخبره بأنه بعد أن تسلم البهائم المريضة من العزبة أتت لجنة من الصحة لإعدام هذه البهائم وحرقها حتى لا ينتشر المرض فاختبأ أبو اليزيد حتى غادرت هذه اللجنة العزبة، فشكره عاشور وأغدق عليه المال وطلب منه أن ينتظر الذبح ليأخذ نصيبه من اللحم، فشكره أبو اليزيد وقال له إنه يحملها فقط ولايأكلها، وضحك الجميع وانصرف أبو اليزيد.

بمجرد أن يرخي الليل ستائره على الحارة الكل ينام إلا الخفافيش، إنها خفافيش الظلام التي لا تحب النور حيث يكون الليل سترًا لها، أحد هؤلاء الخفافيش ميمون

القرداتي الذي يخرج بقرده ليلاً ليسرق ملابس النسوة وبيض الدجاج، ولكن سوء حظه أوقع قرده في شقة كوهين اليهودي الذي يعشق الليل ليتلصص على أخبار الحارة ويسمع همسهم. يدخل القرد من النافذة المفتوحة في شقة كوهين فيفزع كوهين ويتمالك نفسه ويلقي للقرد بأصبع من الموز فينسى القرد نفسه ويجلس منصاعًا تحت قدم كوهين الذي ما أن اطمئن أن القرد لن يؤذيه حتى أحضر حبلاً وربطه في الطوق الذي برقبته وخرج من شرفته ينادي على ميمون لأنه بالتأكيد ينتظر القرد أسفل المنزل، وفعلاً ظهر ميمون وهو يتظاهر بالانزعاج والدهشة فيطلب منه كوهين أن يصعد إلى شقته لأن هناك شيئًا يخصه، فهم ميمون مغزى كلامه وصعد درج السلم إلى شقة كوهين فوجد الباب مفتوحًا وقرده مربوطًا من عنقه بإحدى مقابض الغرف. استقبله كوهين مهددًا متوعدًا بفضح أمره وسجنه، فتوسل له ميمون أن يتركه وأن القرد يفعل ذلك من تلقاء نفسه، لكن كوهين لم يصدقه، وبعد إلحاح وتوسلٍ من ميمون ضحك كوهين ضحكة أصابت ميمون بالذهول ولم يتركه كوهين يتعجب طويلاً ونظر لعينيه الخائفتين، وقال له إنه يمتلك ثروة من الممكن أن تجعله من أغنياء الناس، فظن ميمون أنه يسخر منه ومن سرقته للغسيل النسائي ولكن كوهين قال له أنه من الممكن تدريب ذلك القرد بل قتل ذلك القرد، فقاطعه لأن ذلك القرد هو مصدر الرزق الوحيد له والمهنة الوحيدة

التي يجيديها، وبخبث شديد ضحك كوهين وقال له: اسمع كلامي ستربح آلاف الجنيهات. فأحس ميمون بجدية الكلام وأصغى له باهتمام. كانت خطة كوهين هي أن يتم قتل القرد وترى جثته كل الحارة وسيشتري كوهين قردًا آخر على أن يدربه ميمون لكن على سرقة الذهب من الشقق الكبيرة التي يدخلها كوهين بصفته مصورًا فوتوغرافيًا لكبار العائلات وتكون حصيلة السرقة بالمناصفة، فطلب منه ميمون إعطاءه يومين كي يفكر وسيعود له وتركه وأخذ القرد وانصرف .

الوحيدة في هذه الحارة المسموح لها بدخول الحارة في أي وقت من الليل هي هانم الراقصة ومساعدتها قطاطة؛ فهانم قد أخذت تصريحًا من المركز لأن عملها يتوجب عليها أن تتواجد ليلاً؛ فالأفراح والليالي لا تتم إلا في الليل.

هانم امرأة لعوب على علاقة بوجهاء القوم بحكم عملها، وبِحُكم جسدها فهي مطمع لأي رجل، ولكن لا يحظى بمذاق لذة ذلك الجسد إلا لمن يدفع الكثير والكثير من المال؛ لذلك كانت تتمنع على أهل الحارة، غير أن مساعدتها قطاطة والتي تطمع أن تتعلم من هانم مهنة الرقص واللعب بقلوب الرجال وأن تنال من جيوبهم ماتشاء من المال .

كانت قطاطة هي السبيل المتيسر والرخيص للمتعة الحرام في الحارة، فقد كان حبها للمال لا نظير له، فهي تبيع بأي سعر ولأي مشتر؛ المهم أن ترى المال، وكان ذلك

موضع إهانة لها من هانم التي تطالبها بالحكمة والسيطرة على تصرفاتها .

تدخل هانم وقطاطة الحارة متأخرتين كعادتهما وكعادتهما يُنَسقان مسبقًا مع عم قطب موعد رجوعهما، وهو يفتح لهما مبتسمًا لأنهما سوف يضعان في يده بعضًا من القروش الحرام، يشكرهما ويدعو لهما وما إن يديران ظهريهما حتى يبصق عليهما داعيًا أن يخلص الله الحارة منهما .

لقد كانتا في هذه الليلة مخمورتين جدًا وبمجرد نزولهما من الحنطور توقفت قطاطة ونظرت إلى شرفة مصطفى كثيرًا لكن هانم جذبتها من ذراعها وطلبت منها اللحاق بها وأنه يجب عليها أن تنسى مصطفى هذا لأنه لا يملك قوت يومه، وطالما أنه يجالس شفيق أفندي فلن ينظر لها أبدًا، فلعنت قطاطة الحب وصعدا إلى شقتهما.

لم يمر وقت طويل إلا وصوت عم قطب يعود من جديد ليوقظ المصلين ولكنه في هذه المرة كان له دافع آخر غير الصلاة يتضح ذلك عندما مر بجوار منزل عاشور الجزار وأخذ ينادي ويكرر الصلاة يا حاج عاشور .. الصلاة خير من النوم. فما كان من عاشور إلا أن صاح من داخل المذبح على أحد صبيانه بأن يذهب مسرعًا إلى قطب ومعه فخذة كبيرة من اللحم حتى يسكته ويدعهم يعملون في سرية قبل أن يفضح النهار أمرهم، وبمجرد أن التقط قطب الفخذة

عـاد إلى داره دون أن يوقـظ أحـدًا مـن أهـل الحـارة. الأمـر الـذي دفـع الشـيخ محمـد الضريـر أن يتعجـب عـن عـدم حضـور المصلـين وأولهـم قطـب، يتخيـل الأسـباب للبعـض ويلتمـس الأعـذار للبعـض، وتشـرق الشـمس وتعلـو أصـوات العصافـير التي أنهكهـا الجـوع، كمـا أنهـك المـرض والجهـل أهـل هـذه الحـارة.

روحيـة زوجـة علـي السـقا توقظـه هـو وابنـه عـادل للذهـاب إلى الصنبـور للعمـل ويسـتيقظان ليجـدا الإفطـار علـى طبليـة اعتـادا أن يـأكلا عليهـا منـذ سـنوات، لا يذكـران عددهـا ولكنهمـا يذكـران نـوع الطعـام الـذي يتناولانـه منـذ عشـر سـنوات، وبمجـرد أن رأى عـم علـي الأكل حتـى تحسـر علـى إفطـار شـريف بـك وعـن روعـة مذاقـه وعـن جمـال ابنـة شـريف بـك وأدبهـا وتواضعهـا، وأخـذ عـادل يسـأل عـن بنـت شـريف بـك وشـكلها وطولهـا وشـعرها.

لم يقطـع حديثهمـا سـوى صرخـة مـن روحيـة لهمـا بالكـف عـن الـكلام والإفطـار سـريعًا والذهـاب للعمـل وإن كان يريـد إفطـارًا كإفطـار شـريف بـك فليعطهـا مـن النقـود مـا يكفـي لشـرائه وقالـت لـه المثـل المعهـود والمتـوارث بـين النسـوة عـبر كل العصـور وهـو «يـا جاريـة اطبخـي .... كلِـف يـا سـيدي»، فأخـذ علـي السـقا يلعـن سـلاطة لسـانها وتنـاول إفطـاره وانصرفا في طريقهمـا للصنبـور، فـإذا بالسـيد ابـن الدمنهـوري يسـتوقفه ليدعـوه إلى حفـل زفافـه علـى فاطمـة بنـت إبراهيـم أفنـدي

الباش تمرجي فهنأه عم علي وابنه عادل، وطلب عم علي من السيد أن يخبره عن أي شيء قد ينقصه من متعلقات؛ فهو كالمرحوم والده ولقد كانا صديقين، فشكره السيد ودعا له بالصحة وأنه لا ينقصه سوى أن يكون الجميع حوله.

ذهب السيد بعدها ليدعو عم عبد الرازق العجلاتي ونعمان ومصطفى وعم شفيق وعم سند، وكل أهل الحارة فهو يعتبرهم أهله؛ فقد عاش يتيم الأب وتوفيت أمه مؤخرًا ولا أخ له، وبالرغم من أن السيد مثل باقي أهل الحارة يكره مسعود إلا أنه دعاه لزفافه! قد تكون العادات والتقاليد والأصول هي ما دفعته لذلك، وربما بعض الخوف من غضب مسعود إن لم يتم دعوته إلى الزفاف.

كان أهم المدعوين في ذلك الحفل الصول عتمان ذلك الرجل حاد الطباع الصارم في الحق، فلقد دعاه السيد أن يكون هو وكيله أمام المأذون، لم يرفض عتمان طلب السيد ووعده بالحضور هو وأسرته وأخته وتمنى له التوفيق .

كان السيد مشغول طوال هذه المدة بدهان شقته وتأثيثها؛ فلابد أن تكون جميلة وترضي إبراهيم أفندي وعائلته .

وكما كان السيد مشغول طوال الوقت كان أبو العز تاجر المخدرات هو الآخر مشغولا طوال الوقت بصفقة كبيرة من الحشيش سوف تصل له وستزيد من سطوته وأمواله تضمن له ولابنه أدهم من بعده أن يكون لديه إمبراطورية كبيرة

من المال والسلاح، ولكنه كان قلقًا من أدهم وسلوكه؛ فهو مستهتر ومصائبه كثيرة، وكثيرًا ما نصحه وعنفه ولكن دون فائدة، فقد أدمن السهر في الحانات ومرافقة الساقطات من النساء، بل إنه، وفي الماضي القريب فقط، هتك عرض فتاة تعمل خادمة تدعى فوزية، أتت وهي تشكو وتتوسل لأبي العز من أن أدهم انتهك عرضها بعد أن هددها بالكلاب الشرسة وخافت فقام باغتصابها وهي الآن حامل منه وتريد أن يصلح غلطته ويتزوجها، ولكن أبا العز قلبه أقذر من قلب ابنه فلقد عذبها وهددها وطردها، وهو يعلم أن ما في أحشائها هو جزء منه، ولم تجد هذه المسكينة غير اللهِ لتشتكي إليه وغير بيت الله لتلجأ إليه، فاستقبلها الشيخ محمد وسمع لها وأعطاها مفتاح غرفته في منزل سند القبطي، فشكرته ودعت له بالستر وأوصى الشيخ محمد سند القبطي بأن يرعاها ويهتم بها، وكان سند عند حسن ظن الشيخ محمد فقد أظهر ترحابًا وحبًّا لفوزية لا يصدران سوى من أب لابنته. كانت فوزية لا تريد سوى بعض الوقت لتتماسك وتعيد حياتها وتخرج للعمل، فهي لن تظل طوال العمر تستجدي من الشيخ محمد وعم سند، ولم تستطيع العودة لبلدها، وهي حامل من السفاح، فلن يصدقها أحد.

والحق يقال إن الشيخ محمد وعم سند لم يقصرا معها في شيء. لم تَسلم فوزية من مضايقات الشباب المتسكعين على الصنبور ومحاولتهم النيل منها خصوصًا مسعود؛ فهو

يعلم قصتها، وكان وجود أناس مثل الصول عتمان وعم شفيق والشيخ محمد رحمة من الله لأن الضعيف يحتمي بهم من بطش الظالمين. كان أظرف هؤلاء المتسكعين هو نعمان الجزار؛ فهو مُحب لكل البنات والنساء، رومانسي مفرط في الرومانسية، عاشق للجنس لدرجة الجنون، فهو الآن متعلق بقطاطة ولا يفارقها وهي تداعبه وتستغله في الحصول على المال واللحوم مجانًا، وهو يرضى منها بما تجود هي به من جسدها، وكانت هذه العلاقة سبب توتر علاقته مع أبيه؛ فهو يريد أن يتزوج قطاطة والكل يعلم مهنتها وسيرتها النجسة، ولم يجد عاشور والده مفرًّا غير أن يذهب باقي أخوة نعمان لقطاطة ويهددوها بالبعد عن نعمان، ولكن قطاطة تفاجئهم بأنها هي الأخرى لا تريده وهو الذي يطاردها وهو من نوع الرجال الذي لا يستهويها، وعليهم هم أن يمنعوا ابنهم، ووعدتهم بأن تغلق الباب في وجهه إذا حاول العودة لها مرة أخرى، كان صوتهم عاليًا جدًا، ولكن كان هناك صوت أعلى صوت يندب ويولول، صوت رجلٌ يصرخ مفجوعًا، إنه صوت ميمون جرى الجميع نحو الصوت فإذا بهم يرون ميمون يجلس أمام جثة القرد الذي يعمل معه فيوسيه الجميع ولكن قلوبهم تحمل فرحة لظنهم أن بموت القرد سينصلح حال ميمون، وسوف يستريح أهل الحارة من سرقة ملابس نسائهم.

الوحيد الذي كانت لمواساته معنى مختلف هو كوهين؛ فقد ذهب ليربت فوق كتف ميمون داعيًا له بالعوض، ونظر كلاهما في عيني الآخر ليعلنا بداية العمل معًا.

كانت نظلة تراقب الموقف من نافذتها، وكذلك مصطفى، وبمجرد أن التقتا عيناهما تبادلا التحية والابتسامات وعيناهما تنطق بالحب، ولكن حياء كليهما يمنعهما من البوح بما في القلب. كانت نظراتهما تحرق قلبين آخرين هما مسعود وقطاطة؛ فكلاهما يحترق من تلك النظرات. مسعود يعلم أن قطاطة تحب مصطفى، وهي أيضًا تعلم ما كان من شفيق لمسعود وصفعه على وجهه. أشار مسعود لقطاطة أن تنزل في مدخل دارها لأنه يريدها فأومأت له قطاطة بالموافقة ونزلت ويلاقيها مسعود مادحًا في جمالها وأنوثتها، وكيف أنها صارت غايةً في الأنوثة، وهي تتظاهر بالدلال والخجل، ثم يتحول خجلها إلى غلظة وتسأله بلهجة ساخرة عن سبب دعوته لها وماذا يريد وأنها تعلم أن ما يريدها من أجله يتعلق بمصطفى ونظلة فيتعجب من فراستها ومعرفتها لذلك الأمر، ولكنها نفت تعجبه، وأخبرته بأن كل الحارة تعلم أن مسعود يحب نظلة وأنها تحب مصطفى. هنأها مسعود على ذكائها وأنها قد وفرت عليه كثرة الكلام والشرح، وعرض عليها أن يتحالفا ليفوز كلاهما بحبيبه، حذرته قطاطة بأن يمس مصطفى بأي سوء فطمأنها مسعود بأن الأمر لن يحتاج إلا إلى تخطيط وصبر ليفرقا بين مصطفى ونظلة،

فوافقت على فعل أي شيء يجعل مصطفى يحس بها ويكون بين مريديها، فطلب منها مسعود أن تصحبه معها لشقتها، فطلبت منه أن يدفع أولًا؛ فالشغل شغل فادعى الفقر ولكنها تفهم ألاعيبه وتعجبت من أحد رجال أبى العز يسير دون نقود، ولو عرف أبو العز ذلك لقتل مسعود، دس لها المال في صدرها وصعدا السلم معًا ينهلان من نبع المتعة الحرام .

يتزين مسجد سيدي عماد الدين كما يتزين كل عام من أجل المولد؛ فهذا الاحتفال ينتظره أهل الحارة والحواري المجاورة؛ فتكثر فيه النذور والذبائح والمراجيح والنشان، وكذلك اللصوص ولكن الكل ينتظره ويحبه، إنه الليلة والمسجد قد علق كل الفوانيس والزينات، ووضع الشموع فوق الضريح وألبسوا الضريح ثوبًا أخضر مطرزًا بآيات من القرآن وخضبوه بالعطر والبخور طوال ذلك اليوم .

يتبرك الأهالي بالمقام ويدعون بما يشاءون والشيخ محمد يقرأ ويردد الابتهالات وكلٌّ يصحب معه أطفاله وزوجته إلا عم علي السقا فقد ذهب منذ وقت لبيت شريف بك لكي يصطحب معه ابنته، كما وعدها من شهر، وشريف بك يوصيه ويرغب أن يرسل معه حراسًا، لكن عم علي يرفض وترفض زهرة أيضًا طالبين بأن يكونا على حريتهما، فأهل الحارة طيبون ولاخوف منهم أبدًا، وانصرفا وذهبا للمولد وتجولا بالحارة وذهبا إلى ضريح سيدي علاء الدين، وأثناء سيرهما تقابل عم علي مع ابنه عادل فسلم عادل

علـى زهـرة وسـلمت عليـه، وطلـب منـه أن يسـير معهمـا في المولـد فاسـتأذن عـم علـي مـن زهـرة فوافقـت وبـدأت الأحاديـث بينهمـا. لقـد انـجذب عـادل إليهـا بسـرعة ولم لا ؟ فالقمـر قـد صـار بجـواره يحادثـه ويسـمعه، وأثنـاء سـيرهما حـاول مجموعـة مـن اللصـوص سـرقة حقيبتهـا، فمـا كان مـن عـادل سـوى أن طاردهـم وأوسـعهم ضربًـا ولكنهـم أرادوا أن يطعنـوه فتلقـى الطعنـة في يـده حتـى صـارت تنـزف بغـزارة، فسـلم زهـرة حقيبتهـا وهـو ينـزف، وهـي تصـرخ تطالـب بإسـعافه فطمأنهـا عـادل أنـه جـرح بسـيط ولا داعـي لأن تقلـق وأخـذه عـم علـي إلى المنـزل ليـداوي لـه الجـرح.

كان لتلـك الواقعـة أثـرٌ رهيـبٌ في قلـبٍ زهـرة حيـث بـدأت تعجـب بشـهامة عـادل ورجولتـه الـتي تفتقدهـا في الشـباب مـن نفـس وسـطها الاجتماعـي، ويمـر الوقـت الجميـل سـريعًا ولابـد أن تعـود زهـرة لبيتهـا، فقـد أوشـك المولـد أن ينفـض وتأخـر الوقـت فطلـب منهـا عـم علـي ألا تخـبر والدهـا عمـا صـار مـن شـأن السـرقة ومـا حـدث لابنـه عـادل فوعدتـه وسـار معهـا حتـى بـاب الاسـتراحة وودعهـا وانصـرف .

يعـود أهـل الحـارة لمنازلهـم وهـم مسـرورون وخصوصًـا عـادل الـذي لا يصـدق نفسـه ويشـعر كأنـه في حلـم جميـل لا يوقظـه منـه سـوى ألم الجـرح بـين الحـين والآخـر .

كذلك حال زهرة التي سهرت تفكر في هذا الشاب الذي يطارد لصوصا من الممكن أن يقتلوه من أجلها، إنه شهمٌ ورقيقٌ ومهذبٌ، ظل يفكران في بعضهما حتى غلبهما النعاس. لكن ميمون لم ينم تلك الليلة فلقد خسر مصدر رزقه الوحيد وصديقه الوحيد وأصبح الآن بلا عمل، وهو الآن يشعر بالغباء والحمق لأنه صدق كلام ذلك اليهودي اللعين وخسر أموالاً كثيرة كان سيجنيها تلك الليلة من المولد لو أنه لم يقتل قرده، فحمله غضبه على الذهاب إلى كوهين الذي ما إن رآه حتى استقبله استقبالاً حافلاً تعجب منه ميمون فلقد ناداه بصديقي ميمون وقدم له الطعام والشراب وقبل أن يتكلم ميمون بكلمة واحدة وجد في يده نقودًا كثيرة وقال له كوهين: أعلم بأنك تمر بضائقة مالية وهذه دفعة من المال تحت الحساب حتى يبدأ العمل وأن العمل سيبدأ قريبًا. فشكره ميمون وأخبره أنه رهن إشارته وعاد إلى غرفته .

كانت ليلة سعيدة على جميع أهل الحارة؛ ففوزية قد التحقت بعمل اليوم عند أسرة طيبة، توسط لها في العمل لديهم عم سند، وبذلك تستطيع أن تعول نفسها وتعول ابنها القادم .

وفي أحد الأيام وهي في طريقها للعمل رأت فوزية أدهم ابن أبو العز يسير في الشارع فجرت إليه تتوسل وتسترحمه أن يصلح فعلته، وأن يرحم الطفل الذي في بطنها، وتظاهر لها بالطيبة، وطلب منها أن تهدأ وتسير معه حتى دخلا في

بيت مهجور وانهال على بطنها بالركلات يريد أن يتخلص من جريمته ويجهضها، ولكن صراخها لفت انتباه المارة الذين تجمعوا حولهم فحال ذلك دون إتمام غرضه، وتطوعت إحدى النسوة بتوصيلها للحارة لأنها في حالة إعياء شديدة. كان أول من رآها هو شفيق لأن مكتبته بأول الحارة فهرول إليها مسرعًا يسألها ما حدث لها فتخبره بما حدث من أدهم وهي تبكي بحرقة ومرارة وكيف أنها ضعيفة ووحيدة ولا تجرؤ على أن تخبر أحدًا من أهلها. أشعلت كلمات فوزية الفتى الثائر بداخل شفيق فأخذ يصيح في أهل الحارة مخاطبًا نخوتهم ورجولتهم، وكيف أن فوزية اليوم قد تصبح إحدى بنات الحارة غدًا إن لم يتخذوا موقفًا مع أبو العز، لقد كان بارعًا في استثارتهم فتجمعوا حوله مدججين بالعصي وذهبوا إلى أبو العز الذي ما إن رآهم حتى أدرك أن الأمر أكبر من رجاله ومن قوته ومن كلابه، وحاول أن يجذب شفيق إلى صفه ويتكلم معه منفردًا، ولكن شفيق رفض إلا أن يكون الكلام أمام الجميع. يالله من مشهد! أبو العز بكل قوته وطغيانه خائف، فدخل أدهم عليهم وبكل تبجح طردهم وهددهم بالقتل فسبه الشيخ محمد فدفعه أدهم ليسقط أرضًا وسط غضب أهل الحارة وسخطهم، أبو العز يحاول تهدئتهم بينما أدهم ينادي على رجاله أن يضربوه وأطلق سراح كل الكلاب لتهاجم الناس، يفر أهل الحارة مذعورين من الكلاب والبلطجية

ما عدا شفيق الذي وقف بمكانه ليصطحب الشيخ محمد بعد أن نزفت أنفه وشفتاه من أثر الاصطدام بالأرض .

لقد عاد الجميع إلى الحارة يتجرعون مرارة الهزيمة والإهانة، وبمجرد أن رأوا شيخ الحارة الكل يذهب لداره، فهو لا يأتي بخير والبعد عنه غنيمة. تتجه قدما مغاوري شيخ الحارة نحو منزل عاشور وينادي على ابنه عبده فيخرج له ظانًا أن الأمر يتعلق بالمشاجرة مع أبو العز، ولكنه يبلغه أنه مطلوبٌ للخدمة في الجيش وعليه الاستعداد للسفر. كانت كلماته قاسية فمن يدخل الجيش لا يعلم متى يخرج منه! ولكنها أقدار الرجال، يتلقى عبده النبأ بالصدمة، ولكنه كان يعلم أنه سيدخل الجيش لا مفر من ذلك، ولكن المفاجأة هي التي أحزنته، واستوضح منه على موعد السفر، فأوضح أنه بعد شهر من الآن .

أصبح عادل من يوم المولد هو المسئول عن مياه شريف بك متعللاً لشريف بك أن والده مريض وهو يحل محله، والحقيقة أن عادل أوهم والده بالمرض وجعله يستسلم لهذا المرض كي يذهب هو إلى منزل شريف بك، فقد تطورت علاقته مع زهرة بشكل سريع، وأصبح اليوم الذي يمر دون أن يرى زهرة يوم حزين، ولقد أوشكا على البوح بمشاعرهما غير أنه لم تبق سوى كلمة أحبك لينطقها كل منهما .

الليلة هي ليلة عرس الدمنهوري على فاطمة بنت إبراهيم أفندي الباش تمرجي. الشادر الكبير يضم كل الحارة، أهل العروس الصول عتمان يجلس مع زوجته وابنه وأخته حمدية وبجانبهم إبراهيم أفندي وزوجته وابنه أحمد، وتصافح إبراهيم أفندي مع الصول عتمان وتصافحت النسوة، ونظرت زوجة إبراهيم أفندي نحو أخت عتمان وأثنت على جمالها وأدبها وسألت إن كانت مخطوبة فنفت زوجة الصول عتمان، فنظرت الأم لأحمد ودعت أن تكون حمدية من نصيبه، ففرح أحمد ووضعت حمدية وجهها في الأرض من الخجل وهمهمت زوجة إبراهيم أفندي في أذن زوجها فنظر إلى حمدية وأحمد وضحك .

على الجانب الآخر يجلس شفيق مع مصطفى وابنته نظلة، وقد استغل مصطفى مناسبة الفرح ونطق وصرح لشفيق أنه يريد أن يتزوج ابنته، ففرح شفيق من هذا الخبر وأخبرهم أنه يعتبره ابنه الذي لم ينجبه، ولكن المكان الآن غير مناسب لهذه الأحاديث. وصل ذلك الحوار إلى مسامع نعمان الذي ما إن سمعه حتى طار به إلى مسعود الذي تظاهر بعدم الاهتمام.

كان الزفاف مناسبة جميلة كي يعبر أهل الحارة للدمنهوري عن حبهم له، فهانم ولأولِ مرةٍ ترقص في الحارة بل وترقص بالمجان تبعتها قطاطة ثم قام ميمون بعمل ألعاب خفة اليد وقام الشيخ محمد بغناء التواشيح الجميلة

عن حب الرسول والحج، وكانت مفاجأة الفرح هي أن عم سند أذهل الحاضرين بصوته الجميل، الكل يعيش حالة من السعادة والفرحة عدا مسعود الذي تسلل من بين الحاضرين مسرعًا إلى اليهودي كوهين وأخذ يطرق بابه بقوة حتى فتح له كوهين وسأله عن سبب مجيئه في هذه الليلة وفي هذا الوقت المتأخر فأخبره بأمر مصطفى مع نظلة، وأنهما الآن على وشك الخطبة، ويجب أن يجد له حلا يجعل مصطفى يتركها ويكرهها وهي تكرهه. وطلب منه مسعود أن يساعده وإلا سيفضح العلاقة بينه وبين ميمون، فأنكر كوهين أن يكون بينه وبين ميمون أي علاقة، فأخبره مسعود أن ميمون في إحدى جلسات التعاطي معه غاب ميمون عن الوعي وكشف له مخططه مع كوهين، نظر له كوهين وطلب منه أن يمهله بعض الوقت وأن مسألة نظلة ومصطفى محسومة، ولن يتزوجها، وطلب منه أن يرسل له ميمون القرداتي لأنه يريد منه أن يشتري له بعض لوازم المنزل، فكرر له مسعود ضرورة الإسراع في إيجاد حل لأن الوقت ليس في صالحه، وكرر كوهين نفس الإجابة بأن أمر نظلة ومصطفى محسوم ولن يتزوجها .

عاد مسعود للزفاف ثانيةً وهمس في أذن ميمون فغادر الفرح متجهًا نحو منزل كوهين الذي ما إن رآه حتى جذبه من ملابسه ودفعه داخل الشقة يسقط أرضًا ويتهمه بالغباء

ويسبه وشرح له كيف أن مسعود قد علم بالأمر فاعتذر ميمون ووعده بعدم تكرار ذلك .

أخذ كوهين ميمون من يده وفتح باب غرفة ليجد ميمون قردين من النوع غالي الثمن مربوطين بأحد أعمدة السرير، لم يصدق ميمون المفاجأة، بل انبهر فقط من ثمنهما لأنه يعلم أنهما غاليان جدًا وقال لكوهين: الآن فقط قد فهمت أن العمل الجديد على مستوى عالٍ من المهارة .

قال له كوهين: أريد منك أن تعلم أحدهم سرقة الملابس والأوراق والآخر سرقة المجوهرات والذهب، سأله كوهين: كم من الوقت تحتاج لتدريبهما؟ فأجابه ميمون: مثل هذا النوع يتمتع بالذكاء ولن يحتاج أكثر من شهر بعدها سيكونان أبرع من أي لص. ولكن كوهين كان له شرط وهو أن يدربهما في شقته وأن يحضر ميمون كل يوم لمنزل كوهين كأنه يساعده على قضاء حوائج المنزل فوافق ميمون وبدأ العمل .

الكل ينتظر. عبده ينتظر التجنيد، فوزية تنتظر المولود، عادل ينتظر رؤية زهرة، نعمان ينتظر النساء على الصنبور، مصطفى ينتظر موعده مع شفيق، وأبو العز ينتظر وصول شحنة مخدرات جديدة، غير أن أبو العز ازداد قلقه على ابنه أدهم بعدما أدمن بشكل كامل كل أنواع المخدرات والقمار والنساء الساقطات، وأصبح لا يفيق إلا نادرًا، وكثيرًا ما حذره أبو العز من أن التاجر الماهر هو الذي يبيع الصنف

ولا يشربه ويعشق النساء ولكن لا يحب، ولكن دون فائدة فأدهم يسعى نحو الهاوية، كان أبو العز حزينًا من أن تلك الإمبراطورية سوف يتركها لابنه المستهتر، وسوف يضيع تعبه طوال العمر ولا وريث غيره، ولم تفلح كل طرق ردعه وبداخل أبو العز صوت قوي يعلم مصدره أنه صوت ضميره الميت يقول له: كما تدين تدان وأن السموم التي تبيعها للناس ستقتل أعز ما في الدنيا إلى قلبك إنه أدهم. لم يكن سهلًا على أبو العز أن يتصور أن نهاية ابنه الوحيد يكتبها هو بيديه.

لقد كان فرح الدمنهوري هو فاتحة خير على كل الحارة؛ فقد شجع الكثير من الشباب على الزواج، فمصطفى يذهب الآن لنظلة حسب الموعد وبصحبته الشيخ محمد وعم سند، ويستقبلهما شفيق بحب وترحاب ويتبادلان النكات والدعابة حتى تدخل نظلة حاملةً شراب الورد فيداعبها الشيخ محمد ممتدحًا جمالها فيضحك الجميع وتبدأ مناقشة التفاصيل وموعد الخطبة وتتم قراءة الفاتحة ويسرق مصطفى ونظلة نظرات الحب من خلف عيون الحاضرين، وتنطلق زغرودة من عمة نظلة تجعل مسعود يهب مذعورًا من نومه وكأنها سكين غرست في قلبه وكذلك تصدم قطاطة ويقع ما بيدها من شراب كانت تعده لتتناوله مع هانم .

يهرول مسعود إلى اليهودي كوهين ليخبره بالأمر ويطلب منه إما أن يحسم الأمر عاجلًا أو سيحسمه هو بقتل مصطفى.

كان عادل يتلصص النظر إلى زهرة كلما حانت الفرصة لذلك. تارةً يتعلل بمرض والده، وتارةً يذهب مع والده بقربة أخرى كي يلتقي عينا زهرة. كان يعلم أنه لا يحق له مجرد التفكير فيها إنه يحسد مصطفى على أنه قد عشق إنسانة من نفس طبقته ونجح في الوصول إليها، أما الوصول لزهرة فإنه أقرب ما يكون إلى ضروب الخيال .

يفاجأ عادل بمن ينادي على أبيه فيخرج ويعتذر لأن أباه في واجب عزاء ببلدة مجاورة فيخبره المنادي أن منزل شريف بك يحتاج إلى الماء فورًا، ويدرك عادل أن هناك شيئًا في الأمر عاجلاً وخطيرًا، فكمية الماء التي أفرغاها صباحًا بمنزل شريف بك تكفيهم وتفيض، وبسرعة حمل القربة وذهب للصنبور ليملأ القربة ويرى ما في الأمر .

كان القلق يبدو على وجه عادل لأنه بحكم مهنته يعلم أن الأمر لا يتعلق بالماء .

كان مسعود شديد التوتر والانفعال، وكلما علت الزغاريد زاد غيظه، وكوهين يحاول تهدئته بكل برود، لقد تمت قراءة فاتحة نظلة وعما قريب سيفقدها مسعود للأبد إن لم يجد حلاً سريعًا، أخبره كوهين: لقد آن الآوان يا صديقي بأن ننفذ خطتنا كي نفسد هذه الخِطبة، وتكون نظلة من نصيبه، وأخبره أنه سوف يأتي بملابس نظلة الداخلية وأن عليه أن يذهب للمرأة التي يذهب لها الناس للحمام ويطلب منها

وصفًا دقيقًا لجسد نظلة وأفهمه أن كل ما عليه فعله هو أن يضع في يدها المال ويقول لها إنه من طرف كوهين وهي ستنفذ المهمة ثم يحضر ليخبره بالجزء الثاني من الخطة، ففهم مسعود أنها خطة شيطانية بالتأكيد لا تصدر سوى من هذا اليهودي اللعين، وعاد مسعود لبيته ليغفو وهو قرير العين .

زهرة تستقبل عادل بنفسها يبدو عليها القلق والحزن، وبينما عادل يتظاهر بأنه يسكب الماء يسألها ما الذي يفزعها فأجابته بأنه قد صدر أمر لوالدها بالنقل إلى الإسكندرية بعد أن نال ترقية لإخلاصه في عمله، كانت هذه الكلمات كفيلة بجعل عادل كقطعة من حجارة حيث أنه صار يسكب الماء على الأرض غير مبالٍ أن الإناء قد امتلأ وفاض، وأخبرته زهرة أنها يصعب عليها العيش من دونه. فلقد صار عادل جزءًا من حياتها، بل صار كل حياتها، وأخبرها عادل بأن حبها قد صار القمر الذي ينير من حوله كل الدنيا والزهرة التي حرمته الحياة منها، واحتضنها عادل وعاشا في بحر الخيال لا يدريان بالدنيا من حولهما حتى دخل الحارس فوجدهما في أحضان بعضيهما فعاد ثانيةً، وحمل عادل قربته وهرول خارج المنزل مرعوبًا فهو قد حكم على نفسه بحكم لا يعلمه إلا الله، أقل ما فيه هو الموت، دخل عادل على أمه ثم دخل غرفته وأغلقها عليه ينتظر قضاء الله .

يذهب الحارس لشريف بك في مكتبه ويستأذن في الدخول عليه وهمس في أذنيه بما رآه فانتفض شريف بك من مكانه ووجهه الأبيض قد صار قطعة من النار من شدة الغضب والغيظ، لكن سرعان ما يتمالك نفسه وأخذ يفكر في الموضوع بهدوء بحكم عمله في البوليس؛ فالأمر حساس وسوف يسيء له ولابنته ولمكانته، وهو في منصب لا يحتاج إلى شوشرة، ولكن ما هي الطريقة التي يردع بها ذلك الحقير الذي تجرأ على أسياده وأغوى ابنته، وطلب شريف من الحارس بأن يتكتم الأمر ويتظاهر بأنه لم ير شيئًا، فأكد له الحارس تنفيذ الأمر وانصرف .

صار عادل كمن حُكمَ عليه بالإعدام وينتظر التنفيذ، وإذا بباب داره يطرقه شخصٌ بقوة وينادي على عادل فيحاول عادل الاختباء بغرفته ووجهه يتصبب عرقًا فتفتح أمه الباب ظنًا منها أن عادل نائم، فإذا بنعمان هو القادم ليسأل عن سبب اختفاء عادل طوال اليوم، فيطمئن عادل فتشير له الأم إلى غرفته، يدخل نعمان ويداعبه ويسبه لأنه نائم مبكرًا ويسأله عن سبب اختفائه على غير العادة كل ليلة، فيتعلل عادل بأنه يشعر ببعض التعب، ويخبره نعمان بأنه سوف يتزوج من ابنة عبد الرازق العجلاتي وبضحكة مكسورة يهنئه عادل ويتمنى له التوفيق فيطلب منه نعمان أن يأتي معه لشراء ملابس جديدة لكي يذهب بها لرؤية عروسه، ويعتذر

عـادل لكـن نعمـان يجذبـه بالقـوة وتتدخـل أمـه، وتطلـب منـه أن يذهـب مـع نعمـان ولا يتخلـى عنـه في مثـل ذلـك الموقـف.

وهمـا في طريقهمـا للخـروج يجـدان أبـو اليزيـد العربجـي وقـد مـلأ عربتـه بالأثـاث الخـاص بميمـون، وميمـون يقـف بجـوار العربـة يـودع أهـل الحـارة ويسـأله النـاس عـن السـبب فيتعلـل أنـه بعـد مـوت القـرد لم يعـد لـه عمـل وسـيذهب لـمكان آخـر وجـد فيـه عمـلاً وسـكنًا. يودعه النـاس ويودعهم وينظر إلى شـرفة منـزل كوهـين الـذي يبتسـم لـه ابتسـامةً تعـني أن خطتهـم تسـير علـى أكمـل وجـه، ويقـول كوهـين في نفسـه: الآن سـوف نبـدأ العمـل دون أن يشـك أحـد بـأن ميمـون هـو اللـص لأن القـرد مات وميمـون تـرك الحـارة وفي المسـاء سيرسـل لـه القردين المدربـين .

يذهـب عـادل و نعمـان لشـراء الملابـس ويعودان بعـد أن اختار نعمـان جلبابًـا أبيـض جميـلاً والدنيـا ترقـص مـن حولـه ويلتقـي مـع مصطفـى ويسـأله نعمـان عـن الخِطبـة فـإذا بمصطفـى يفيـض في المديـح في الخِطبـة وجمالهـا وسـعادتها ويتمنيـان لعـادل أن يخطب مثلهما فيضحك ضحكة مكسـورة ويتفرقان كلٌّ إلى منزله .

بمجـرد أن غـادر ميمـون الحـارة تبعـه كوهـين ليشـرح لـه تفاصيـل أول سـرقة ومكانهـا وأوضـح لـه أنهـا سـتكون في قصـر أحـد البشـاوات الكبـار فيسـيل لعاب ميمـون للغنيمـة ويطلب منه كوهـين أن يشـتري عربـة يـد كعربـات بائعـي الخـردة ويتجـول بهـا كـي يـراه أكـبر عـدد مـن النـاس وأن يذهـب بهـا أيضًـا إلى

الحارة ويخبرهم بأنه يشارك كوهين في تجارة الخردة وبذلك سيتمكن من الاتصال بكوهين بأي وقت وأيضًا سيتم تخبئة القردين والمسروقات في العربة، فطلب منه ميمون يومين فقط لتجهيز العربة.

في الصباح يلحظ علي السقا أن ابنه عادل لا يلح عليه في أن يذهب معه إلى شريف بك ويسأله عن سبب ذلك التحول المفاجئ فيجيبه بأنه لا سبب، ولكنه يشعر ببعض الإرهاق، ولكن والده ألح عليه أن يذهب معه، كان الأب يظن أن عادل مبهور بمسكن شريف بك وأسلوب معيشته ولم يكن يخطر بباله أن عادل قد وقع في حب زهرة مع إلحاح الأب ذهب عادل وهو يحمل القربة وقدماه كمن يساق إلى الموت ويُمني نفسه بأن الحارس قد لا يجرؤ على إبلاغ شريف بك بما رأى .

لم يدم تفكيره طويلاً؛ فلقد وصل لباب الاستراحة ودخل ليفرغ الماء فإذا بكل الحراس تتكاثر عليه وتمسك به وتذهب لشريف بك مدعين أنهم قبضوا عليه وهو يسرق من المنزل مشغولات ذهبية ولقد خبأها داخل قربته .

ما كانت لصرخات زهرة وتوسلات عم علي أن تشفع لعادل لدى شريف بك فلقد طرد الحراس عم علي خارج الاستراحة، وقام شريف بك بصفع زهرة على وجهها وأمرها ألا تخرج من غرفتها وانهال على عادل بالصفعات والسباب متهمًا إياه بأنه لص حقير أتي هنا ليسرق من المنزل .

لم ينطق عادل بكلمة لأنه يعرف بأن كلامه لا يُجدي مع شريف بك، وأن الأمر مدبر مسبقًا، وأمرهم أن يقتادوه على الكراكون، وسوف يتولى أمره هناك بنفسه، فأخذه الحراس ومشوا به إلى الكراكون وهم في طريقهم رآه شفيق وهو يسير مع نسيبه مصطفى فسألوه عن السبب فصمت وأمرهم الحراس بالابتعاد فجرى شفيق ومصطفى نحو منزل عم علي فلم يجداه وأخبرا أمه بأمر عادل وما إن سمعت حتى تعالى صراخها وبينما هي تندب وتولول وأهل الحارة حولها دخل علي السقا فأخبرته زوجته أنهم اقتادوه إلى الكراكون فجرى مسرعًا إلى الكراكون وطلب مقابلة شريف بك الذي ما إن رآه حتى شتمه وسبه وأخبره أن ابنه لص يسرق ما ليس له فطلب منه أن يراه ويفهم منه ما حدث لأن ابنه ليس لصًا لكن شريف بك طرده، وأخبره أن ابنه سيتعلم ويعلم قدره لكن في السجن ليكون عبرة .

خرج علي السقا يتوكأ على أهل الحارة يدعو الله أن يفك أسر ابنه. كان أهل الحارة يحبون علي وولده عادل حتى أن نعمان قرأ فاتحته على ابنة عبد الرازق دون زغاريد .

تمر الأيام على عادل في محبسه طويلة مازال في صمته يرفض أن يتكلم كلمة واحدة عن زهرة حتى لا يشوه صورتها الجميلة حتى أثناء التحقيق معه وإحالته إلى المحكمة التي قضت بسجنه سبع سنوات .

انهـار عـادل بعـد سمـاع الحكـم عليـه وانهـارت أسـرته وتعـالى عويلهـا وصراخهـا .

كانـت الحـارة كلهـا حزينـة مـن أجـل عـادل عـدا ذلـك اللعـين كوهـين الـذي كان هـو وميمـون في غايـة السـعادة بسـبب القرديـن ومـا يجلبانـه مـن مسـروقات مـن قصـور الأغنيـاء وزادت أموالهما بكثـرة ولكـن هـذه الثـروة لم تكـن عشـق ذلـك اليهـودي فقـط بـل كانـت المكيـدة والغـدر لهمـا عشـق آخـر في قلـب كوهـين فقـد اكتملـت خطتـه الخبيثـة ضـد نظلـة وشـفيق ومصطفـى فقـد أرسـل ميمـون بالقـرد لكـي يحصـل علـى ملابـس نظلـة الداخليـة وحصـل مـن السـيدة الـتي تمتلـك الحمـام علـى كل مواصفـات جسـد نظلـة، ولم يعـد هنـاك غـير التنفيـذ، واسـتدعى مسـعود وأخـبره بـأن كل شـيء جاهـز الآن وعليـه أن يذيـع خـبر علاقتـه مـع نظلـة لـكل الحـارة ولم يجـد مسـعود أكثـر مـن قطاطـة تحمسًـا للقيـام بهـذه المهمـة؛ فهـي مسـتفيدة جـدًا مـن هـذا الموضـوع وطـرق البـاب، وطلـب منهـا أن تأتـي لشـقته في المسـاء لأمـر مهـم فرفضـت ولكنـه أخبرهـا بـأن الأمـر يتعلـق بعلاقتهـا مـع مصطفـى، وأن هنـاك فرصـة لا يجـب أن تضيـع منهمـا، وربمـا تكـون الفرصـة الأخـيرة ولكنهـا لم تصدقـه فأخـرج مـن جيبـه نقـودًا وأعطاهـا لهـا وقـال لهـا: إذن أنـا أريـدك هـذه الليلـة. فقالـت لـه أنهـا كانـت تعلـم منـذ البدايـة أن هـذا مـا يريـده فضحـك مسـعود وتركهـا وانصـرف .

وصلت فوزية إلى الشهر التاسع من حملها وتنتظر المخاض بين لحظة وأخرى، كما بدأت نظلة في تجهيز احتياجات العروس لأن موعد عقد قرانها وزفافها على مصطفى قد اقترب، الكل ينتظر حتى مسعود. لكن عم علي ينتظر ويعد الأيام والليالي التي سيزور فيها ابنه من جهة، ومن جهة أخرى انقضاء مدة عقوبته .

لقد كان لوقع حادثة عادل مع شريف بك الأثر البالغ في حياة عم علي فقد تهاوت صحته، وأيضًا أحجمت بيوت كثيرة عن الاستعانة به خوفًا من أن يطالهم منه سرقة أو أي شيء سيء، فصمت عادل، وكان بمثابة إقرار منه بأنه السارق، لم يكن بوسع عم علي شيء يفعله لابنه سوى الدعاء بأن يفك الله أسر ابنه .

لم يُضع مسعود الوقت فقد دخل للمسجد وصلى خلف الشيخ محمد، وأخبره بأنه أذنب وندم ويريد أن يتوب. كان الشيخ محمد أعمى ولكن كان ذا بصيرة حادة أبت أن تصدق توبة مسعود بالرغم أن مسعود يُقسم أنه تاب، ولكنه لا يعلم هل ذنبه سيغفره الله أم لا ؟ وطلب من الشيخ محمد أن يسمعه ويحكم، فأخبره مسعود بأنه قد زنى فاستعاذ الشيخ محمد من مسعود وفعلته وتابع مسعود قائلًا بأن ما يحزنه ليس هو الذنب فقط ولكن لأنه أخطأ في حق أناس يحبهم جدًا ولعن الشيطان الذي زين له الطريق الحرام، وجعله ينظر لخطيبة صديقة مصطفى خطيب نظلة بنت

شفيق فنهره الشيخ محمد واتهمه بالكذب، ولكن مسعود أقسم أنه صادق وعنده الدليل على كلامه وألا ينخدع أحد بمظهر ابنة شفيق التي تدعي العفة والشرف. فقال له الشيخ محمد: وما دليلك؟ فقال له: تعال إلى غرفتي فلا داعي للحديث في مثل هذه الأمور في المسجد وطلب الشيخ محمد من مسعود أن يذهب لينادي على سند ليكون معهم شاهدًا وحكمًا، وسار الثلاثة حتى غرفة مسعود فأخرج ملابس نظلة الداخلية من عنده وشرح لهم علامات مميزة في جسدها وطلب من الشيخ محمد أن يحذر صديقه مصطفى أن يقع فريسة لهذه الفتاة الخليعة، وأن يسامحه لأنه قد هدم فرحته فطلب منه الشيخ محمد أن يمهله بعض الوقت فهو لا يدري كيف يُخبِر مصطفى بتلك الكارثة خصوصًا وهو يستعد للزواج، وأيضًا لأن فوزية ستلد اليوم على الأكثر، ولا يوجد لها أحد سوى الشيخ محمد، وأنه ذاهب إليها أولًا، فوافق مسعود على ذلك وعرض مساعدة فوزية لكن الشيخ محمد شكره وطلب من سند أن يصحبه إلى المنزل وصعد لها فإذا هي تتألم وتصرخ من آلام المخاض فيطلب الشيخ محمد من سند أن يذهب بسرعة لإحضار الداية، وبمجرد أن أنهى سند كلامه مع الشيخ محمد أرسل زوجته لفوزية وذهب هو لإحضار الداية .

يعود عم سند والداية في يده يجذبها ويأمرها بأن تسرع الخطى، دخلت الداية وما هي إلا دقائق وإذا بصرخات الطفل

تعلو بداخل الغرفة وكل من خارج الغرفة مسرور يحمد الله .

خرجت الداية لتعلن أن المولود طفل جميل أسمته أمه صابر لأنه قد أتى بعد صبرها على كل ما لاقته من أذى ومتاعب وظلم، ولأنه سيشاركها رحلة الصبر. بدأ بنات عم سند يتوافدن بالطعام والشراب، كذلك أرسل بيت عاشور الدجاج واللحم إلى فوزية لأنهم يعلمون أنها لا أهل لها سوى أهل الحارة .

احتضنت فوزية ابنها وهي قلقة على مصيره حين يسأل عن أبيه من يكون، لكن الشيخ محمد طمأنها بأن الله سيرعاه وأن الله قادر على حل كل مشاكلها، وذهب الجميع وتركوها لترتاح قليلاً على أن يعودوا بعد قليل .

في الموعد المحدد تذهب قطاطة لمنزل مسعود فتجده قد تهيأ لاستقبالها وأعد لها كئوس الخمرِ وأطباق الفاكهة ودخلت في دلال، ولما رأت هذه الأشياء قالت له إنها تعلم أنه دعاها لنفسه وليس لأمر علاقتها بمصطفى فضحك منها ساخرًا وقال لها إنها تعلم أنه يحب نظلة جدًا ولا يرغب في امرأة سواها، فتمالكت قطاطة غيظها، وكيف أنه قد أتى عليها اليوم الذي يرفضها فيه شخص مثل مسعود، وسألته: إذن ما الخبر الذي دعوتني من أجله ودفعت ليَّ المال؟ فقال لها: بخصوص مصطفى. فيتحول وجه قطاطة للاحمرار والانتباه والفضول والترقب، فقال لها مسعود

إنـه وجـد الحـل للخـلاص مـن مشـكلة زواج مصطفـى ونظلـة، وشـرح لهـا مـا دبـره هـو واليهـودي كوهـين والمطلـوب منهـا الآن هـي أن تذهـب لمصطفـى وتخـبره بشـأن مـا حـدث وتطلـب منـه أن يذهـب إلى الشـيخ محمـد وسـند ليسـألهما فقالـت لـه قطاطـة إنـه مخطـط لا يصـدر إلا مـن إبليـس نفسـه، فضحـكا وتجرعـا كئـوس الخمـر واحتفـلا معًـا بمخطـط الشـيطان .

بعـد أن نهلـت قطاطـة متعتهـا مـع مسـعود ذهبـت لتنفـذ دورهـا فذهبـت إلى شـقة مصطفـى وأخـذت تطـرق البـاب بشـدة ففتـح مصطفـى البـاب مندهشًـا مـن سـبب زيارتهـا فلـم تمهلـه حتـى لكـي يسـأل فقـد دخلـت إلى داخـل شـقته بسـرعة فحـاول مصطفـى أن يمنعهـا فتعـرض نفسـها عليـه فيطردهـا فتلـح في العـرض فيصفعهـا علـى وجههـا فتغتـاظ منـه قطاطـة وتلقـي القنبلـة في جعبتـه وتقـول لـه إذا كان يريـد أن يكـون رجـلاً حقًـا فعليـه أولًا أن يضـرب مـن يسـتحق الضـرب بـل القتـل وليذهـب إلى حبيبـة قلبـه ويسـألها عـن علاقتهـا بمسـعود وفضائحهـا معـه فيضربهـا أكثـر ويسـبها ويدفعهـا خـارج الشـقة ويتهمهـا بأنهـا سـاقطة وتريـد أن ترمـي الآخريـن بمـا تفعـل، وأن نظلـة اسمهـا أطهـر مـن أن ينطقـه فـم نـجس مثـل قطاطـة لكنهـا تدافـع عـن نفسـها وتقـول إنهـا إن تكـن سـاقطة فهـي واضحـةٌ في سـلوكها ولا تتخفـى في ثـوب الشـرف والفضيلـة وهـي منغمسـة في الوحـل مـع مسـعود فيدفعهـا بقدمـه خـارج المنـزل وهـي تقـول لـه اسـأل الشـيخ محمـد وسـتعلم الحقيقـة، فأمسـكها مـن شـعرها وقـال

لهـا: إن كنـت كاذبـةً فلـن يكفيـني قتلـك. فضحكـت قطاطـة ضحكـة سـخرية مكـررة قولهـا بـأن يذهـب إلى الشـيخ محمـد ولا يكثـر في الـكلام فمكانـه معلـومٌ للجميـع.

يجـري مصطفـى نحـو الشـيخ محمـد ويدخـل في غرفتـه بالمسـجد ويسـأله عمـا سمعـه فيطلـب منـه الشـيخ محمـد عـدم التعجـل في الأمـر وأن مسـعود إنسـان لا يثـق في كلامـه أحـد، وعليهـم أن يتيقنـوا أولًا مـن صـدقِ كلامـه قبـل اتخـاذ أي إجـراء، ويجـب أن يلتقـي مسـعود مـع مصطفـى بحضـور شـفيق وعـم سـند ونظلـة، واشـترط علـى مصطفـى أن يتمالـك نفسـه في وجـود مسـعود وإن كان كاذبًـا فسـوف يلقـى عقابـه مـن كل الحـارة، ومـن شـفيق خصوصًـا وإن كان صادقًـا فليحمـد ربـه علـى أنـه قـد اكتشـف أمـر هـذه الفتـاة قبـل أن تكـون زوجـة لـه. أبلـغ الشـيخ محمـد بعـد الصـلاة شـفيق أنـه يريـده في أمـرٍ مهـم الليلـة بمنـزل سـند هـو وابنتـه نظلـة، ونبـه عليـه بعـدم التخلـف دون أن يعطـي أيـة تفاصيـل .

في المسـاء اجتمـع الـكل بمنـزل سـند يتملـك كلٌّ مـن شـفيق ونظلـة الحـيرة والتعجـب، ويـكاد مصطفـى أن ينفجـر مـن الغيـظ ومـا هـي إلا ثـوانٍ حتـى دخـل مسـعود فتعجبـا شـفيق ونظلـة من سـبب وجـوده وهـم مصطفـى أن يفتـك بـه لـولا تدخل عم سـند .

يطلـب عـم سـند والشـيخ محمـد مـن الحضـور مراعـاة حُرمـة المنـزل وأن يحـترم الجميـع وجـود الشـيخ محمـد والإصغـاء لـكل

ما يقوله بهدوء وحكمة، فسأل شفيق الشيخ محمد بلهجة غاضبة: ماالأمر؟ فطلب منه الشيخ محمد أن يتمالك نفسه ويتحلى بالصبر، وبدأ يروي القصة التي سردها مسعود له بخصوص نظلة. كان مسعود يجلس بجوار عم سند والشيخ محمد مخافة الفتك به لكن شفيق ثار غاضبًا من الشيخ محمد وعم سند لأنهما قد سمعا من ذلك الحقير هذا الكلام وصدقاه، ولكنهما نفيا أنهما صدقا ذلك الكلام ولكن لابد أن يواجه ادعاء هذا الحقير ويتخذا معه موقفا رادعا في حالة كذبه.

يطلب الشيخ محمد من الجميع القسم على كتاب الله بقول الصدق فوافق الجميع بما فيهم مسعود. كانت قطاطة تعلم بأمر الاجتماع وتشيع في كل بيوت الحارة أن الشيخ محمد وعم سند قد اجتمعا مع مسعود وشفيق لمحاولة إقناع مسعود بالزواج من نظلة بعد أن تورطت معه، ولكن مسعود يرفض الارتباط بها وهم يساومونه الآن ليقبل .

كان مسعود يضع يده على خده الذي صفعه عليه شفيق فقد حان الوقت لكي يرد له الصفعة ألف ألف صفعة، وكذلك لينتقم من مصطفى الذي يتصور أنه حرمه من حبيبته، وبدأ الشيخ محمد يروي كيف أن مسعود هو الذي طلب تلك المواجهة .

في الغرفة المواجهة للصالة التي يجلس بها الرجال كانت تجلس نظلة مع زوجة سند وبدأ مسعود يروي ما حدث

بينه وبين نظلة وكيف أنه اعتاد لقاء نظلة دومًا وكيف أنهما انغمسا في الحرام أكثر من مرة وأنه حاول في بداية الأمر أن يتقدم لخطبتها لكن شفيق كان يعامله باحتقار، وهنا ثار شفيق عليه هو ومصطفى فحذرهما الشيخ محمد من أن الشوشرة قد تضر سمعتهما أكثر من كلام مسعود نفسه. أخرج مسعود من جرابٍ يحمله في يده السروال الداخلي لنظلة وعرضه على أبيه وكيف أنها تركته له للذكرى فأنكر والدها وادعى أنه ربما يكون قد سقط من شُرفتها ولم ينكر أنه لها وقال مسعود إنه افتعل الشجار مع شفيق باتفاق مع نظلة ليبعدا الشكوك عنهما، ولكن حين يصل الأمر للزواج من مصطفى ذلك الشاب الطيب فقد أحست بالندم وأقسم ألا أتركه مخدوعا في تلك الفتاة وقال لهم إن جسد نظلة به ندبات في البطن وحسنة كبيرة بين الكتفين وهي تحتفظ في غرفتها بخطابات من مسعود وليذهب أي شخص وسيجد تلك الخطابات فيطأطئ شفيق رأسه ويسأله الشيخ محمد: ندبات؟! فيصمت ويكرر الشيخ السؤال، وهنا يطلب مصطفى من شفيق وهو كالمجنون أن يأخذ مفتاح شقته ليرى إن كانت هناك خطابات أم لا، ويأخذ درجات السلم كلها في درجة واحدة، ويصل لشقة شفيق والكل واجمٌ صامتٌ على مسعود ينظر لشفيق وقد أذله وانتقم منه ونظلة منهارة لا تصدق ما حدث تبكي وتُقسم أنها بريئة.

يعبث مصطفى بمحتويات غرفة نظلة حتى وجد الخطابات التي قد ألقاها القرد وهم في شقة سند وفتحها مصطفى ولم يكد يقرأ ما بها حتى اسودت الدنيا في وجهه، وأخذ الورق وصعد السلم فكل الحارة تنظر له، فقد أشاعت قطاطة الخبر، وصعد السلم كالمشلول وطرق الباب وفتح له سند فانهار في البكاء يصرخ في وجه شفيق ويتهم ابنته بأنها على علاقة بمسعود وأنه كان مخدوعا فيها، كل تلك الفترة وأنه من الآن لا يريدها فتجري نظلة مرتمية في حضن أبيها تُقسم له وتبكي فيأخذها في صمت وينزل لداره والكل ينظر إليه ويصعد السلم، وما إن يفتح الباب حتى ينهال عليه ضربًا كاد أن يقتلها وهي تقسم على البراءة، وبعد أن أتعبه الضرب تركها تدخل غرفتها، ما إن دخلت غرفتها حتى وجدت سكينًا بجوار طبق الفاكهة محاولةً الانتحار، ولكن أباها يدركها وتقسم له على أنها بريئة فيحتضنها الأب ويبكيان وتقول إن سبب حزنها ليس اتهام مسعود لها ولكن لأن أباها ومصطفى قد شكا في سلوكها فضمها الأب إلى صدره وقال لها بأن الله سيكون معها إن كانت مظلومة وأنه من اليوم لم يعد له مكان في هذه الحارة وعليهما أن يحزما حقائبهما وسيعود شفيق لبلدته في الصعيد حيث أهله وحيث لا يعلم أحد بهذه الفضيحة، وأنه عليه أن يحزم حقائبه من الآن فلا يزال منزل أمه في البلد خاليًا وجاهزًا للسكن في أي وقت، وأرضه هناك سيرعاها ويعمل

بهـا ويلملمـان متاعهمـا، ويذهـب شـفيق إلى أبـو اليزيـد الـذي استقبله وواساه في مصيبتـه فطلـب منـه شـفيق أن يحضـر بعـد الفجـر لنقـل متاعـه إلى محطـة القطـار حيـث قطـار البضائـع المتجـه إلى بلدتـه، وفي طريـق العـودة يلتقيـه كوهـين ويواسـيه في مصيبتـه ويستفسـر منـه عـن بيتـه في الحـارة ومـا هـو مصيره وأن سـوف يحتـاج إلى نقـود كثـيرة حتـى تسـتقر أمـوره في المـكان الجديـد ويعـرض عليـه كوهـين النقـود فيشـكره شـفيق علـى ذلـك ويسـأله كوهـين ثانيـةً عـن المنـزل فيجيبـه شـفيق بأنـه لا يعلـم مـا سـيفعله بـه فيطلـب منـه كوهـين أن يتخلـص منـه لأنـه لـن يعـود للحـارة فأجابـه شـفيق بـأن ضيـق الوقـت يحـول دون بيعـه فهـو مسـافر بعـد الفجـر فأيـن المشـتري في هـذه السـاعات القليلـة؟ وأهـل الحـارة لا يجـدون قـوت يومهـم، فـيرد عليـه كوهـين بأنـه علـى اسـتعداد أن يحـل لـه هـذه المشـكلة، وهـو علـى اسـتعداد الآن لشـراء المنـزل بالثمـن الـذي يرضيـه، ولم يكـن أمـام شـفيق غـير أن يبيـع منزلـه لكوهـين، ويفـرح كوهـين فرحًـا شـديدًا، ويتمنـى أن يشـتري كل بيـوت تلـك الحـارة .

صـوت الطرقـات علـى بـاب شـفيق فيفتـح ليجـد الشـيخ محمـد يحتضنـه ويخـبره أن قـد وجـد حـلاً قـد يلغـي أمـر السـفر فمسـعود أبـدى رغبتـه في الـزواج مـن نظلـة، ومـا إن سمعـت نظلـة ذلـك الـكلام حتـى نهـرت الشـيخ محمـد لأن ذلـك يعتـبر إقـرارًا منهـا بصـدق كلام مسـعود، وكذلـك رفـض شـفيق عـرض الشـيخ محمـد وودعـه، وينـزل الشـيخ محمـد ليبلـغ

مسعود بالرفض، ولأول مرة يحس مسعود بتأنيب الضمير فكل ما فعله وخطط له قد فشل، وهاهو يفقد نظلة للأبد ويفقد شرفه ورجولته فهو يدرك أن ما فعله منتهى الخِسة والندالة، وما كان ليخرجه من هذه الحالة إلا أن يذهب ليحتسي كئوس الخمر .

ينغلق مصطفى على نفسه ولا يخرج من شقته ويختار سجنًا اختياريًا كالذي اختاره عادل رغمًا عنه، فكلاهما يدفع ثمن حبه وكلاهما خاسر. مصطفى أصبح كغزال جريح في الغابة لا يقدر على الجري، فأصبح فريسة سهلة لأي صياد أو ذئب، والصياد هنا كان ماهرًا ومتمرسًا، إنها قطاطة التي أخذت تتودد لمصطفى وتلبي احتياجاته، وهو بمرور الوقت بدأ يتعود عليها لأنه قد فقد معيار الصواب والخطأ، ولم يعد يستطيع التمييز بين الأخلاق والانحلال، فنظلة كانت تتظاهر بالأخلاق وهي ساقطة، فربما تلك الساقطة قطاطة يكون معدنها طيبا، وفي لحظة من لحظات الضياع طلب منها مصطفى أن يتزوجها ولم تصدق قطاطة نفسها وبسرعة يتم الزواج بالرغم من تحذيرات كل أهل الحارة له، إلا أنه كان كالمسحور أو فاقد العقل.

أصبح مصطفى منقطعًا عن العمل، واكتفى فقط بأن يكون زوج قطاطة التي ما زالت تسير في نفس الطريق، لم تتغير بالرغم من زواجها فهي راقصة وساقطة في نفس الوقت،

فصارت تدخل كما تشاء وتعود كما تشاء، وفي الأشهر القليلة القادمة سوف تضع أول مولود لها من مصطفى.

لم تنقطع زيارات علي السقا عن ابنه عادل في محبسه وعادل ما زال ملتزما الصمت يرفض الحديث لوالده ووالدته عن سبب اتهام شريف بك له وتنقضي الزيارة ما بين دعوات عم علي بأن يفك الله أسر ابنه وبين سؤال عادل عن أهل الحارة وخصوصًا صديقه مصطفى ونعمان، فيخبره أبوه أن نعمان قد رزقه الله بطفلة جميلة أسماها جميلة، فيضحك عادل ويتذكر نعمان وأيام الصنبور ومطارته لكل النساء بلا استثناء، ويطلب عادل من والده أن يبلغ سلامه للجميع بلا استثناء .

تبدأ ملامح الثراء على ميمون، بالرغم من عمله بنفس العربة القديمة التي يدفعها بيده مع ذلك اليهودي اللعين كوهين الذي بدأ هو الآخر يشتري بيوت الحارة بمبالغ كبيرة، وكذلك قطعتين من الأرض الفضاء، وفي يوم من الأيام أتى ميمون ليبلغه بأنه سوف يتوقف عن السرقة بالقرود، ويكفيه ما حصل عليه من أموال ليعيش حياة كريمة بعمل شريف، فيحاول كوهين إقناعه بكل الطرق أن يرجع عن قراره ولكن ميمون الآن ليس ذلك القرداتي الوضيع فلقد أعطى المال لميمون قوة وأصبح يتكلم بتلك القوة، فهدده كوهين بأنه سوف يبلغ عنه وعن كل سرقاته، ولكن ميمون

هدده هو الآخر بأنه شريكه في كل جرائمه، ولا مانع لديه من أن يدخلا السجن معًا، أضف إلى ذلك أنه سيخبر مصطفى وشفيق وكل أهل الحارة بما فعله مع نظلة وكيف سرقا ملابسها ووضع لها الخطابات .

فلما أحس كوهين جدية تهديده ابتسم له ابتسامة صفراء ووافق على فض الشراكة، ولكن اشترط على ميمون أن يقوم له بآخر عملية بعدها سيتم إعدام القردين ويتفرق كلٌ إلى حال سبيله، فيوافق ميمون على مضض منتظرًا موعد لتنفيذ آخر عملية .

في الصباح يأتي عسكري من الكراكون ليسأل عن بيت الشهابي، إنهم أناس في الحارة مسالمون ولا يحتكون بأحد، فيتجمع أهل الحارة حول العسكري يسألونه عن سبب سؤاله عنهم فيجيبهم أن ابنهم قد استشهد في الحرب ضد الاحتلال فتتعالى الصرخات والعويل وتتحول جنازته إلى ثورة عارمة منددة بالاحتلال وبالخونة، وتظهر قوات البوليس لتفريقهم فيتجهون نحو الحارة محطمين باب الحارة كرمز بأنه لا قيود ولا سجن بعد اليوم.

بعد تحطيم باب الحارة والذي ظل لسنوات رمزًا للأمان عند البعض ورمزًا لتقييد الحرية عند البعض الآخر، لم يعد هناك حاجز يفصل الحارة عن العالم، فموت ابن الشهابي حرك الشعور الوطني لديهم، فمصر ليست هي الحارة

بل هناك وطن، وأن هناك شهداء، وهناك خونة تمنوا لو أعدموهم على باب تلك الحارة .

صابر ابن فوزية في سنوات عمره الأولى يتأهب لدخول المدرسة، ولكن المشكلة التي كانت تواجهه هي لمن ستنسبه وستكتبه باسم من بعدما رفض أبوه الاعتراف به، وبينما هي تحاور الشيخ محمد في الأمر عرض الشيخ محمد الحل عليها وهو أن يتزوجها ويكتب الطفل باسمه ليتمكن من دخول المدرسة فتشكره فوزية على هذا الصنيع الذي لولاه لكانت الآن معرضةً لكل من يريد أن يفترسها، ولكنه أخبرها أنه لم ينجب وستكون هي ابنته لا أكثر، وطلب منها أن تدعو له بالرحمة والمغفرة حين يموت.

أتت أخبار الحرب على مصر بالخراب والدمار والمرارة، وعمَّ الكساد في الأسواق إلا تجارة المخدرات، فقد راج سوقها مما دفع أبو العز لأن يضع مدخرات عمره في صفقة من الحشيش أرسل ابنه أدهم لتسلمها لكن أعين البوليس كانت تترصده وتتابع حركاته وتنتظر لحظة التسليم والتسلم حتى يتم القبض عليه متلبسًا، وحين وصلت الشحنة حسب الوعد المتفق عليه شرع أدهم بتسلمها وتسلمهم النقود لكن الشرطة حاصرته وتبادلا إطلاق النار، وبأعجوبة يهرب أدهم من البوليس وهو مصاب وينزف ويصل إلى أبيه ليعطيه حقيبة النقود وأخذ ينزف وينزف ويطلب من أبيه أن يعترف بابنه من فوزية ويرجوه أن يطلب منها أن تسامحه وتجعل ابنه

يـزور قـبره فيعـده الأب ويطمئنـه بأنـه سـوف يعيـش ويطلـب الطبيـب ولكـن أدهـم يرحـل قبـل أن يحضـر الطبيـب، يحتضنـه أبـوه ويبكـي بحسـرة فيدخـل البوليـس ويقبـض علـى أبـو العـز ويـودع في السـجن علـى ذمـة التحقيقـات وقلبـه ينـزف دمًـا علـى مـوت ابنـه؛ فهـو الـذي قـد قتلـه بالمخـدرات الـتي قتـل بهـا آلاف الشـباب، وأدرك أن الله بالمرصـاد، ولكنـه كان مهمومًـا قفـط بتنفيـذ وصيـة ابنـه بـأن يعـترف بحفيـده.

أراد كوهـين أن ينتقـم مـن ميمـون قبـل أن يفك معه الشـراكة، لكـن الوقـت لم يكـن في صالحـه، فـكل البلـد تكـره اليهـود، ولم تكـن تلـك بالمشـكلة الـتي تعتصـي علـى ذلـك اليهـودي اللعـين الـذي ذهـب لسـند وطلـب منـه أن يشـرح لـه المسـيحية وأنـه أحبهـا ويريـد أن يعتنقهـا، وكان سـند يـدرك ويثـق تمـام الثقـة أن كوهـين مـا فعـل ذلـك لاحبًـا في المسـيحية ولا بغضًـا لليهوديـة، وإنمـا ليضمـن أن يبقـى في الحـارة ويعيـش في أمـان بعـد أن تصاعـدت موجـات الكراهيـة ضـد اليهـود والمطالبـة بطردهـم، وأنـه لـولا خوفـه مـن المبالغـة لاعتنـق الإسـلام وذهـب إلى الحـج، ولكـن سـند لا يسـتطيع أن يصـد أي إنسـان أن يعتنـق مـا يريـد، وأخـذه سـند وذهـب بـه إلى الكنيسـة ولقيـا القسـيس وشـرح لـه سـند حكايـة قصـة كوهـين وشـكوكه، لكـن القسـيس طلـب مـن سـند أن يعطيـه الفرصـة وإن كان صادقًـا فلنفسـه وإن كان كاذبًـا فسـيوقعه كذبـه في شـر أعمالـه، ودخـل فعـلاً كوهـين المسـيحية وتم تعميـده وسمـى نفسـه بطـرس، وأعلـن في الحـارة

أنـه صـار مسـيحيًا، وكان الـكل يعلـم أنـه لا ديـن لـه، ولكـن قـل غضبهـم تجاهـه كيهـودي مكـروه خصوصًـا أنـه قـد صـار علـى نفـس ديـن سـند ذلـك المسـيحي المحبـوب. ولكـي يتقـن كوهـين دوره كمسـيحي تـزوج مـن فتـاة مسـيحية صغـيرة مـن أسـرة فقـيرة في صعيـد مصـر، بالرغـم مـن أنـه قـد تجاوز السـتين عامًـا ولكنـه اشـتراها كمـا اشـتري بيـوت الحـارة، ودعـا كل أهل الحـارة لمشـاركته في حفـل الزفـاف علـى هـذه الفتـاة المسـكينة، ولقـد كانـت فرحـة أهـل الحـارة كبـيرة يـوم زفـاف كوهـين ليـس مشـاركة لـه في فرحتـه، وإنمـا هـو يـوم خـروج عـادل من السـجن ذلـك اليـوم الـذي اسـتقبله فيـه أهـل الحـارة بالطبـول والرقـص والزغاريـد، وارتمـى عـادل في حضـن أبيـه وأمـه، وقـد تملكـت منهمـا أمـراض الشـيخوخة ولم يعـد علـي السـقا قـادرًا علـى العمـل ويعيـش علـى مسـاعدة أهـل الخـير ممـن كان يسـقي لهـم قبـل ذلـك، فيعـده عـادل بأنـه سـوف يعمـل كـي يسـاعدهم على حيـاة كريمـة لا يحتـاج فيهـا لمسـاعدة أحـد، وأن السـجن بالرغم مـن أنـه قـد حرمـه منـه إلا أنـه تعلـم الكثـير والكثـير، ولم يخـل منـزل علـي السـقا مـن الزوار ومـن أصدقاء عـادل نعمان ومسـعود.

مسـعود الـذي قـد تبـدل حالـه بعدما توقـف عن العمـل مع أبو العز، وصار لا يملك قوت يومه، فقط يتسـكع في طرقات الحارة .

وبينمـا هـو جالـس ذات نهـارٍ حتـى دخـل الحـارة شـخصان يبـدو عليهمـا أنهمـا ليسـا مـن بـلاد مصـر، ويلبسـون لبـاس

المغاربة ويسألون مسعود عن اسم هذه الحارة فيجيبهما بأنها حارة السقايين فيسألانه عن ذلك المنزل المجاور للمسجد فيخبرهما بأنه منزل صديقه الدمنهوري فيطلب الرجلان منه أن يجمعاه وذلك الرجل فيذهب مسعود مسرعًا لينادي على الدمنهوري فتخبره زوجته بأنه لم يعد بعد، فيعرض عليهما مسعود الانتظار معه في غرفته ويبدأ في مناورتهما لمعرفة سبب زيارتهم للدمنهوري وهم غرباء، فهم لا يعرفون اسمه ويطمئنهم بأنه الصديق الوحيد للدمنهوري وكاتم أسراره فيشرح له الضيفان القصة بأنهما شيخان من المغرب في زيارة لمصر وأثناء مرورهما على الحارة اكتشفا وجود كنز أسفل ذلك البيت الملاصق للمسجد وأنهم على استعداد لاستخراجه مناصفةً معه فيحاول مسعود أن يستوضح منهما عن نوع الكنز وقيمته فيخبرانه بأنه كنز فرعوني لا يقدر بثمن، فيسيل لعاب مسعود ويذهب ثانيةً هو والشيخان لمنزل الدمنهوري فيجدونه ويعرضون عليه الأمر ولكنه يرفض ويطردهم خارج المنزل لايبالي بتوسلات مسعود له بأن يقبل ولكن الدمنهوري يحسم الأمر ويهددهم بإبلاغ البوليس فيخرج الثلاثة من دار الدمنهوري وقد ارتسمت على وجوههم علامات الفشل والخزي، لكن مسعود سألهم عن إمكانية الحفر من مكان آخر غير منزل الدمنهوري فأجابوه أن المكان الآخر للوصول لهذا الكنز هو ذلك المسجد الموجود في الحارة لكن مسعود قاطعهم بأن ذلك مستحيل لأن المسجد لا يخلو من المصليين،

ولأن ذلك الشيخ العجوز لا يخرج من المسجد ليل نهار.

يبدأ المغربيان بمداعبة خيال مسعود وذلك بوصف محتويات الكنز وهو بعد سجن أبو العز لا يجد قوت يومه ويعيش على النصب والسرقة والبلطجة، فيستفسر منهما عن كل شيء يتعلق بالكنز ومكانه فيخبرانه أنه أسفل ضريح سيدي عماد الدين وبالحفر تحته لمسافة لن تتجاوز الثلاثة أمتار سيجد باب الكنز والخير الذي بداخله، وكعادة الشيطان لعب برأس مسعود وجعله يطمع في الكنز وحده، وتظاهر أمام المغاربة بأنه لا وسيلة ممكنة كي يتم الحفر أسفل ذلك المنزل أو ضريح عماد الدين، واعتذر لهما كي يبحثا بأنفسهما عن وسيلة أخرى ولكنهم أبديا حسرتهما على ضياع ذلك الكنز الثمين والسهل، وأنهما قد توجب عليهما العودة إلى المغرب فيودعهما مسعود ويودعانه، ويذهب مسعود إلى غرفته ليفكر في الوسيلة التي ستمكنه من استخراج ذلك الكنز عن طريق الحفر في المسجد دون أن يدري به أحد، وبينما كان مسعود يحلم كان عادل يعمل ويعمل، فكان يتاجر في الأسواق ويساف،ر وكان كلما سافر إلى الإسكندرية تجول بشوارعها لعله يلتقي زهرة ولكن دون جدوى، ويسأل كل شرطي يشتري منه بضاعة عن شريف بك، ولكن لا أحد يعرفه ويعود عادل وهو مكسور، ولكنه يعمل من أجل والديه؛ فهو الآن المسئول عنهما وتعرض عليه أمه كل يوم فتيات من الحارة ومن الحواري المجاورة للزواج، ولكنهً

يرفض متعللاً بضيق اليد، ولكن كان السبب الحقيقي للرفض هو حبه لزهرة، ويقينه بأنه سوف يلقاها في يوم من الأيام، وقتها لو علمت أنه تزوج سوف يجرحها وهي لا تستحق منه ذلك، ولذلك كان يرفض الزواج لعله يكتب لهما اللقاء.

لم يغادر موضوع الكنز خيال مسعود ينام ويستيقظ وهو يحلم به، ولكن كيف الوسيلة إليه لا يدري، ولم يجد بدًا من الاستعانة بذلك اليهودي الماكر كوهين، أو كما أسمى نفسه بطرس المسيحي، ولكن شيئًا بداخله كان يرفض الاستعانة به لأنه طماع وخائن ولكن لا بديل غيره الآن وأكيد هو عنده حل لتلك المشكلة كما حل له مشكلة مصطفى مع نظلة من قبل حتى وإن لم يتزوجها لكنها لم تتزوج غيره، وتذكر عم شفيق وما حل به وكيف ترك الحارة بسببه والذي انقطعت أخبارهما بعدما غادرا الحارة وكم حاول مسعود وغيره معرفة عنوانه ولكن دون فائدة، فشفيق قد ذهب إلى الصعيد واختار لنفسه اسم شهرة وعمل في تجارة بساتين الفاكهة وتبدلت عيشته وصار من الأغنياء وفتح الله عليه أبواب الرزق، أما بنته نظلة فقد تزوجت من ابن عمها وأنجبت منه ثلاثة أبناء، وهي الآن تنسى وتتناسى الحارة وما بها وما حدث منها، لكن شفيق لم ينس ناس الحارة الطيبين بعدما فتح الله عليه أبواب الرزق، فكان يرسل أول كل شهر مبالغ مالية للشيخ محمد وعلي السقا الذي توقف ابنه عادل عن أخذ هذه المبالغ بعد خروجه

من السجن وكسبه من عمل يده، وكذلك كانت فوزية تنفق منه على ابنها صابر وعلى نفسها دون يدري أحد أنه هو الذي يعطيهم تلك الأموال، وكان يبعث بأحد رجاله ليعطي الشيخ محمد وفوزية المال دون أن يعلما مصدره .

لقد حرصت فوزية على تنشئة ابنها صابر تنشئة دينية وساعدها على ذلك الشيخ محمد الذي ساعده على حفظ القرآن الكريم كاملاً في سن ثماني سنوات، وكان محبوبًا من الكبير والصغير في الحارة لأدبه وخفة ظله، فبالرغم من أن الحارة بها أولاد كثيرون إلا أن أكثرهم محبة في الحارة هو صابر الذي لا يعرف أن له أبًا مقتولاً وجدًا في السجن، فقد كان أبوه الذي يعرفه هو الشيخ محمد وكان يناديه بأبي والشيخ محمد يعامله كابنه .

لقد نجح السجن وموت أدهم في تحويل أبو العز إلى رجلٍ آخر كل همه أن يقضي عقوبته ويخرج إلى النور ليرى حفيده ويضمه إلى حضنه ويعوضه عن مقتل ابنه، ولكن أين حفيده وما هي أحواله؟! هذا ما ينتظر أن يخرج من السجن من أجله، لقد تغير قلب أبو العز، فسبحان مغير القلوب! وكذلك تغير قلب مصطفى ذلك الشاب الخجول المؤدب فمن يره الآن لا يعرفه فوزنه قد زاد أضعافًا مضاعفة واحترف لعب القمار وشرب الخمر وأنشأ فرقة للرقص إحدى عضواتها هي قطاطة زوجته، فقد احترفت هي الأخرى الرقص وورثت مكانة هانم التي هداها الله وتابت،

وأفسحت المجال لقطاطة لتكون هي الراقصة الأولى، وصار مصطفى هو الذي يتفق على المبالغ المالية التي ستتقضاها ممن يريدونها أن ترقص في مناسباتهم أو ممن يريدون أن يقضوا معها أو مع فتيات غيرها وقتًا من المتعة الحرام .

انقطعت علاقة مصطفى تمامًا بالشيخ محمد وعم سند كان هناك اعتقاد واحد عنده هو أنه لن يخسر أكثر مما خسر، ولن يتكلم الناس عنه بأكثر مما تكلموا عنه في السابق، فحكاية نظلة عالقة في ذهنه لا يستطيع الخلاص منها، بل والأغرب من ذلك أن مسعودًا نفسه كان من ضمن رواد بيته، لقد تغير مصطفى تمامًا .

لقد كانت ماريا زوجة كوهين أو بطرس فتاة سيئة الحظ؛ فقد أوقعها قدرها في طريق ذلك العجوز اللعين أو أن أهلها قد أرغموها على الزواج منه لثرائه الفاحش ولفقرهم المدقع، فلم تجد أمامها سوى أن تتزوج ذلك العجوز لكي يخلصها من الفقر ولكي تفسح مكانًا في الحجرة التي يقيمون فيها لأخوتها الصغار وتساعد أهلها، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فهي الآن زوجة مع إيقاف التنفيذ، محرومة من كل شيء؛ فذلك العجوز بخيل إلى أبعد الحدود حتى في العاطفة وأسلوب حياته لا يتماشى مع المسيحية ولا حتى اليهودية، إنه لا دين له، إنه نصاب ومرابي ولص. ما العمل والكنسية لا تبيح الطلاق إلا لعلة الزنا؟! إنه القدر الذي لا مفر منه، ومما زاد من أحزانها أنه نظرًا لعجزه

عـن قيامـه بواجباتـه الزوجيـة بـدأ الشـك يتسـلل إلى قلبـه مـن ناحيتهـا؛ فبـدأ يقيـد حريتهـا وتحركاتهـا، فـلا فتـح نوافـذ ولا خـروج لأي سـبب، ولكـي يـداري ضعفـه وعجـزه كان يتصيـد لهـا الأخطـاء ويضربهـا ويهينهـا، بـل وصـل بـه الأمـر إلى أن يقـص شـعرها ليشـوه جمالهـا كـي لا ينظـر لهـا رجـلٌ آخـر، وكان لا يطعمهـا إلا بحسـاب، وبـدأ جسـدها يعانـي الضعـف والهـزال، ولكنهـا صابـرة لأنـه لا مفـر لهـا مـن ذلـك اليهـودي اللعـين. إن تعاليـم الكنيسـة لا راد لهـا .

لقـد بـدأ حلـم كوهـين يتلاشـى في إقامـة حـارة اليهـود بـدلًا مـن حـارة السـقايين بعـد طـرد اليهـود مـن مصـر وبُغـض العـرب لهمـن فبـدأ يؤجـر البيـوت الـتي اشـتراها في الحـارة مـن أجـل اليهـود للمصريـين وبـدأ في زيـادة نشـاطه في الربـا وأصبـح سـيفًا علـى رقـاب أهـل الحـارة بمـا يمتلكـه من صكـوك للرهـن ضدهم .

ذهـب مسـعود إلى كوهـين يؤخـر قدمًـا ويقـدم أخـرى حتـى وصـل إلى دار كوهـين ونـادى عليـه وأدخلـه كوهـين غرفـة مسـتقلة عـن شـقته وبـدأ في قصائـد رثـاء لحـال مسـعود ومـا وصـل إليـه، وكيـف أنـه مشـفق عليـه، أحـس مسـعود بالحسـرة والمذلـة، ولكنـه بـدأ بالـكلام بأنـه قـد أتـت الفرصـة والمشـروع الـذي يجعلهـم يأكلـون ذهبًـا لا خبـزًا، وبمجـرد أن سمـع كوهين كلمـة ذهـب سـال لعابـه وبـدت علـى وجهـه علامـات الفضـول والدهشـة فبـدأ مسـعود يـروي قصتـه مـع المغاربـة ويـروي لـه الأسـاطير المتوارثـة عـن هـذا الكنـز وعـن حراسـه، وكيـف أن

مسعود قد قام بنفسه بسؤال الدمنهوري الذي أخبره أنها حقيقة وأنهم عثروا على بعض القطع الأثرية في المنزل، وأن الدمنهوري رأى مدخل ذلك الكنز، ولكنه يعلم أن حراسه أشداء، وأن هذا الكنز مرصود ولن يفتحه سوى أن يراق فوقه دم إنسان مقتول، ولذلك هو يرفض البحث عنه لأنه سيجلب الخراب والقتل، وهو رجل بسيط، وروى مسعود أنه بإمكانهم الحفر من المسجد، ولكن المشكلة في الشيخ محمد لأنه يقيم في المسجد ليل نهار ولا يغادره، فقال له كوهين: دعك من هذا الآن حتى نتدبر أمر الشيخ محمد وأعطاه مبلغًا من المال، فتعجب مسعود من تصرف كوهين لأنه يعلم مدى بخله، وأنه لا ينفق مليمًا إلا إذا عاد له جنيهًا، ولكن مسعود بفطنته أدرك أن ذلك وبكل تأكيد مقدم أتعاب مأمورية سوف يطلبها منه، ولم يدم تعجب مسعود طويلاً فقد قطع كوهين ريبة مسعود وطلب منه أن يستعد هذه الليلة لأنه سيأخذه معه لمكان سيسهران فيه حتى الصباح، وسيجد مسعود فيه كل ما يتمناه على شرط ألا يبلغ أحدًا بما رأى أو سمع؛ لأن كل من يتكلم يموت وأن من يصمت يصبح غنيًا وذكره كوهين بأنه قد ساعده ليفرق بين مصطفى ونظلة، لكن مسعود تمنى لو لم يفعل ذلك، فهو فعلاً فرق بينهما، لكنه لم يتزوجها وأصبح أيضًا لا يراها، وطلب منه كوهين أن ينساها، وسوف يجعله يحيا حياةً لا يحلم بها لو وافقه وأطاعه دون مناقشة ووعده أن

يلتقيا بعد العشاء عند مدخل البلد الجنوبي بالقرب من مرقد أبي حصيرة ذلك القبر لأحد حاخامات اليهود .

طلب منه أن يأتي بمفرده، ودون أن يخبر أحدًا بوجهته، فوافق مسعود وأخذ النقود وذهب بها إلى قطاطة ومصطفى ليشرب و يأخذ من الحب المحرم من النساء ما يعوضه كل حرمان حتى قرب موعد كوهين، ذهب مسعود ليهندم ملابسه ويصفف شعره ويذهب حيث ينتظره كوهين بجوار مرقد أبي حصيرة. المرقد عبارة عن مزار كبير يزوره كل اليهود من كل البلدان. يصل مسعود حيث المكان فلا يجد أحدًا وينتظر وينتظر وبينما هو يشرع في الرحيل يجد يدًا تربت على كتفه وترحب به، إنه اليهودي كوهين وقد ارتدى ملابس اليهود السوداء ووضع فوق رأسه طاقيتهم الصغيرة، وقبل أن يندهش مسعود من ذلك طلب منه كوهين أن ينسى ما رآه وما سيراه لكن مسعود قال لكوهين إنه كان متأكدًا مثل كل الحارة أنه ما دخل في المسيحية إلا هربًا من الطرد من مصر وليس حبًا في الدين المسيحي، ويضحك كوهين ضحكته الخبيثة، وأنه فكر في دخول الإسلام ولكنه وجد أنها ستكون كذبة مبالغًا فيها ولن يصدقه أحد، لذلك قرر أن يبدأ السلم من أوله، وبعدها سيعتنق الإسلام، فضحك مسعود وهنأه على عقله العبقري، وضحك كوهين ومضيا معًا في طريقهما حتى وصلا إلى المرقد فإذا به يرى العشرات من اليهود وقد تجمعوا في الاحتفال بالمولد وأخذوا

يتناولـون المشـروبات الروحيـة ويصلـون ويتحـاورون ويتعارفـون ومسـعود معهـم، قدمـه كوهـين علـى أنـه صديـق مقـرب منـه ويسـتأذنه كوهـين للـكلام مـع شـخص آخـر ويتركـه وحـده مـدة طويلـة شـعر مسـعود معهـا بالقلـق، ولكـن تأتـي فتـاة جميلـة بـكل مـا تعنيـه الكلمـة فشـعرها ينسـدل حتـى يصـل إلى خصرهـا وعيونهـا بزرقـةِ السـماء بوجـه أبيـض مشـرب بحمـرة، أتـت بـدلال لتسـأل مسـعود عـن سـبب وقوفـه وحيـدًا وسـط هـذا الحشـد مـن النـاس وفي هـذه المناسـبة؟

طلبـت منـه أن ينضـم معهـم ليحتفلـوا جميعًـا فالليلـة لا يليـق بهـا أن يقضيهـا شـخصٌ وحـده ولكنـه أجابهـا أنه ينتظـر صديقه كوهـين وأنـه لا يعـرف كل الحضـور، وهـو لا يحبـذ الاختـلاط بأنـاسٍ لا يعرفهـم حتـى يتهمـه أحـدٌ بالتطفـل، فتتظاهـر بأنـه تحـبّ ذلـك النـوع مـن الرجـال وتسـأله عـن اسمـه فيجيبهـا مسـعود ويسـألها عـن اسمهـا وتجيبـه راشـيل وأنهـا مـن يهـود روسـيا وأنهـا أرملـة لثـري وتعيـش بمفردها وسـط مطامـع الرجال ممـن يرغبـون في نهـش جسـدها أو ثروتهـا منـذ وفـاة زوجهـا، وأنهـا قـد يئسـت مـن العثـور علـى ذلـك الرجـل الـذي تأمنـه علـى نفسـها ومالهـا ويحميهـا، ولكـن اليهـود صعـب أن تجـد فيهـم ذلـك الرجـل، وتحسـرت علـى حالهـا وسـألته عـن حالـه فـروى لهـا بطـولات وأخـلاق كريمـة وصفـات نبيلـة وأنـه لـلآن يبحـث عـن الحـب الصـادق بعدمـا خانتـه حبيبتـه الـتي وهبهـا عمـره، وصـار يتحـدث عـن شـخص آخـر غـيره، تحديـدًا إنـه

يتقمص دور مصطفى وحكايته مع نظلة وهي تبدي تعاطفًا معه بل وتبكي لأحزانه ويعود كوهين ويخبر مسعود بأن عليهم الذهاب الآن لأمر هام فيودع مسعود راشيل ويسير مع كوهين الذي بدَّل ملابس اليهود وارتدى ملابسه العادية وسارا معًا، وينصب الحديث كله من جانب مسعود عن راشيل وعلاقة كوهين بها، ويسأله عن كل شيء يتعلق بها وكوهين يضحك ضحكته الخبيثة ويمني مسعود بالثراء الفاحش إذا وضع يده في يد راشيل، وأن كل أبناء الطائفة اليهودية بمصر يتمنون أن تصادقهم راشيل وينالوا جزءًا من الوقت الذي أخذه مسعود فيعتز مسعود بنفسه ويصلان الحارة .

شدد كوهين على مسعود بسرية ما حدث، وأنه لا يأمن على نفسه وعلى مسعود إذا علموا بالأمر، فطمأنه مسعود وافترقا حتى وصل مسعود إلى شقته هائمًا حالمًا باللقاء الثاني مع راشيل ولكن كيف ومتى وهو لم يسألها عن عنوانها بمصر وهذه يعني أن سيلجأ ثانية إلى ذلك اللئيم كوهين، وأخذ يحلم ويمني نفسه بالجمال والثروة، وبات يحلم كما يحلم عادل باليوم الذي سيجمعه مع زهرة، والذي ما زال يجوب البلاد بحثًا عنها، ولكن دون فائدة، لقد مرت سنوات لا يعرف عددها منذ دخوله السجن ولكنه لم ييأس ولم ينس حبه، وبرغم أن أيامهما معًا كانت قصيرة إلا أنه لازال يحتفظ بها في ذاكرته ويحيا بها كما تعيش ذكرى نظلة في قلب مصطفى على أنها خانته، ولكن حظ

مصطفى كان أكثر قسوةً عليه فقد طلب منه عم سند أن يذهب هو وفرقته ليحيي زفاف أحد أقاربه في الصعيد، ولن يختلفا على الأجر الذي يحدده وعرض عليه مبلغًا مغريًا من المال، وكان هذا الاتفاق بحضور قطاطة التي أومأ لها التاجر بأن تجعله يقبل فأبدت قطاطة موافقتها على السفر وحثت مصطفى على القبول وعدم الاعتذار، فوافق مصطفى مرغمًا، وأخذ منه مقدم الاتفاق واشترط عليه أن تكون قطاطة هي الراقصة، وحددا موعد السفر إلى الصعيد .

كان الفرح يخص ابن أخ لسند، فأراد سند أن يجامله ويكون إحياء الزفاف على نفقته.

تستقل الفرقة القطار في الموعد المحدد حتى يصلا إلى بلدة العريس ليجدوا سندًا في انتظارهم يرحب بهم ويصحبهم إلى المَضيفة الخاصة بالأسرة وأكرمهم وأثنى عليهم وباتوا ليلتهم يستعدون لزفاف الغد وهم متعبون من السفر، ويريدون الحصول على قسط من الراحة .

تشرق الشمس لتجد الفرقة طعام إفطار يكفي أهل الحارة جميعًا مخصصا لهم فقط فيأكلوا مسرورين بهذا الطعام الطيب الوافر. تبدأ الفرقة في تثبيت المعدات وارتداء الملابس لإحياء الحفل. يبدأ الحفل بالأغاني الصعيدية والموال ثم يصعد مصطفى على خشبة المسرح ليعلن عن مفاجأة الحفل إنه نجمة الرقص الشرقي في وجه بحري الراقصة قطاطة،

وهـو أعلـى المسـرح تسـمرت عينـاه نحـو ثلاثـة أشـخاص في طريقهـم لدخـول خيمـة الزفـاف.

يـا اللّه ! إنهـا هـي قـد تغـيرت قليـلاً بعـض ملامحهـا ولكـن هـل مـن عاشـق يخطـئ بمعرفـة حبيبـه؟! إنهـا نظلـة وهـذا الـذي معهـا إنـه أبوهـا أسـتاذ شـفيق، لقـد صـار رجـلاً عجـوزًا! يـا تـرى مـن ثالثهمـا بالتأكيـد إنـه زوجهـا. يـترك مصطفـى الـكلام علـى المسـرح ويقـف لحظـات صامتـة معـزولا عـن العـالم يتمنـى مـن اللّه أن تبتلعـه الأرض أو تنـزل عليـه صاعقـة تحرقـه ولا تـراه نظلـة في تلـك المهانـة وتصعـد قطاطـة علـى المسـرح وتبـدأ في الرقـص، ومـا إن صعـدت حتـى أصابهـا مـا أصـاب مصطفـى وصـارا كتمثالـين، وبسـرعة يختفـي شـفيق ونظلـة مـن الفـرح ويعـودان مـن حيـث أتيـا فقـد تعللـت نظلـة بـأن أصابهـا صـداع مفاجـئ يضـرب رأسـها وأنهـا لا تقـوى علـى الوقـوف وتريـد العـودة للبيـت حـالاً، وبالطبـع أيـد شـفيق كلامهـا بضـرورة ذهابهـا للبيـت لتسـتريح، وهـو سـوف يتـولى الاعتـذار لعـم العروسـة أحـد التجـار المتعاملـين معـه، ومـا هـي إلا لحظـات حتـى اختفيـا تمامًـا ولم يجـد مصطفـى وقطاطـة بُـدًّا مـن أن يبـدأ في العمـل بعـد أن عـلا صـوت الحضـور تطالـب قطاطـة بالرقـص، وينتهـي الحفـل ويلتـزم مصطفـى وقطاطـة الصمـت ولكنهـم أيضًـا لا يخـبران سـندًا بـأي شـيء كـي لا يفتحـا جـراح الماضـي، أو ربمـا ظنـا أن سـندًا متواطـئ مـع شـفيق في تلـك اللعبـة .

في طريق العودة تتهم قطاطة مصطفى بأنه لازال يحب نظلة، لكن مصطفى ينفي ذلك، وعلل سبب دهشته بالمفاجأة فقط ولكن قطاطة تصر على أنه مازال يحب تلك الساقطة الوضيعة التي سلمت جسدها لمسعود وخانته وأخذت تسبها وتسب أباها الذي يتظاهر بالطيبة والحق، وهو على علم بكلِّ شيء، فما كان من مصطفى وبدون أن يدري إلا أن صفعها على وجهها وطلب منها أن تصمت ولكن قطاطة ثارت أكثر وسبته لأنه ضربها من أجل من ألقته وارتمت في أحضان غيره، فأخذ يضربها وتسبه ويضربها وتسبه حتى انهار وتركها وانصرف بعيدًا عنها والتزم كلٍّ منهما الصمت حتى عادا لمنزلهما وهما في قطيعة .

ازداد سكان الحارة وافدًا جديدًا إنه الأسطى غريب سائق التاكسي الذي يسكن في شقة استأجرها ببيت كوهين. كان غريب شخصًا محبوبًا من أهل الحارة لأنه لا يتأخر بسيارته عن أي مناسبة تخص أحدًا منهم ويضع سيارته تحت أمرهم في أي طارئ حتى أن كوهين نفسه صار يعتمد عليه في تحركاته، وعندما مرض علي السقا كان غريب هو أول من حمله في سيارته وذهب به إلى المستشفى، بل وأنفق من جيبه حتى عاد عادل من عمله ووجد أباه في صحة طيبة، فشكر غريب وحفظ له جميله، وأصر أن يأخذ ما أنفقه على علاج والده، وأيضًا لم يمانع غريب في نقل الذبائح المهربة لعائلة عاشور، ولذلك صار مصدر سرهم

وثقتهم، كما لم يمانع في توصيل مصطفى وقطاطة إلى أي حفل زفاف يذهبان إليه، في وقت قصير جدًا أصبح غريب ابنًا من أبناء الحارة.

لم يعد في استطاعة مسعود أن يمنع نفسه من التفكير في راشيل؛ فقد أصبحت صورتها لا تفارق خياله ليل نهار، ولم يكن أمامه سوى ذلك اليهودي اللعين لكي يتحسس أخبارها منه، وكل مرة يخبره كوهين أنها تبعث له بالسلام والتحيات، وأنها الآن في روسيا لإنجاز أعمالها هناك، وفي القريب العاجل ستصل في زيارة إلى مصر، وسوف يخبره بموعد وصولها، وبلهجة ساخرة ماكرة يسأله كوهين عما إذا قد أحبها أو أنه أحب ثروتها لأنه يعلم أن مسعود لا زال قلبه متعلقًا بنظلة لكن مسعود يتهرب من الكلام عن الثروة ويتحدث فقط عن جمالها وأنوثتها ويستفسر منه مسعود عما إذا كان هناك عائق حال كونه مسلمًا وهي يهودية فيجيبه كوهين أن اليهود هم الشعب الوحيد الذين تتيح لهم عقيدتهم فعل أي شيء يريدونه، ويطمئنه أنها بمجرد وصولها حتمًا سترسل له كي يكون في استقبالها. وينصرف مسعود ويعود كوهين إلى داره فيجد زوجته المسكينة تعاني من التعب والدوار وحين يسألها ما بها تخبره أنها بخير وأن أمها زارتها اليوم لتطمئن عليها، وبمجرد أن يسمع كلمة أمها يثور عليها ويسألها لماذا أتت؟ وهو قد أصدر أوامره بمنع أهلها من زيارتها ويكفي ذهابها لهم كل ثلاثة أشهر

ولكنها تقطع حديثه بأنها هي التي أرسلت في طلبها بعد أن غلبها المرض وأصبحت في حاجة لمن يرعاها، وطمأنته على أنها لم تأكل شيئًا أو تشرب في داره لأن البيت أصلا خاوٍ من الطعام والشراب، عندها يهدأ كوهين ويسألها عن مرضها فتخبره بأنها حامل وأن أمها بشرتها بذلك وأنها ستصير أمًا لطفل يملأ حياتها بالفرح والسعادة، لكن كوهين بكل جحود وطغيان يضربها في بطنها بيده وقدمه غير مبالٍ بصرخاتها وتوسلاتها بأن يترك الطفل يعيش، ولم يتركها إلا بعد أن رأى بركة من الدماء أسفلها كدليل على حدوث الإجهاض، ولكنها لم تتوقف عن الصراخ من الحسرة ومن الألم، ويسمع كوهين طرقات على باب شقته فيذهب خائفًا كي يفتح الباب فإذا بغريب يسأله وتبدو عليه علامات القلق والحيرة، وسأل كوهين: ماذا حدث وما سبب تلك الصرخات التي أيقظته وأيقظت كل أهل الحارة؟! وبكل برودٍ ومكر يجيبه كوهين أن زوجته كانت حاملاً فوقعت وحدث نزيف، لم يصدق غريب ما حدث ولكنه تظاهر بأنه اقتنع بالكلام واقترح على كوهين ضرورة نقلها للمستشفى للعلاج لأن النزيف قد يقتلها وسوف يؤدي ذلك إلى أن يدخل في سين وجيم من البوليس .

يخاف كوهين من أن يقع تحت المسائلة، ويطلب من غريب أن يتصرف وينقذه من هذه الورطة، فيحملها غريب لسيارته ويذهب بها للمستشفى ولا يذهب معهما كوهين،

وبمجرد أن نزل غريب بزوجة كوهين نظر كوهين لنفسه في المرآة وقال لنفسه: هل معقول بعد كل هذا التعب والحرمان أن أترك كل هذه الثروة لمسيحي حتى لو كان ابنه؟ إنه المستحيل أن يكون ابنه مسيحيًا! من الأولى به أن يترك ثروته لبناء دولة إسرائيل العظمى من النيل للفرات، وأخذ يسأل نفسه: ماذا سيكون مصير ثروته لو مات؟ بالتأكيد سوف ترثه هذه المسيحية، لا، مستحيل ما العمل ؟ الحل الوحيد هو أن يبيع ممتلكاته في مصر ويذهب إلى إسرائيل كي يعيش هناك، وإن مات يعود ماله بالنفع على أبناء دينه ووطنه في إسرائيل، ولكنه اقترح على نفسه تأجيل تلك الخطوة لأنه ما زال صغيرًا على الموت، وأنه بصحة جيدة، فكيف يفكر في الموت لابد وأن يأخذ من خيرات هذه البلد الكثير والكثير، إنه حق أجداده الذين عملوا عبيدًا فيها لسنوات، ذاقوا فيها المرار والهوان، وطردوا منها كما يطردون الآن ويجلس على مقعده مترقبًا عودة غريب وزوجته .

ما إن وصل غريب المستشفى حتى حمل زوجة كوهين على ذراعيه ودخل بها لغرفة الكشف ويفحصها الطبيب ويطلب منه متبرعًا بالدم لأن فصيلتها نادرة لكن غريب يبادره باستعداده للتبرع لأنه يحمل نفس الفصيلة .

بدأت زوجة كوهين تسترد وعيها شيئًا فشيئًا، وتخبرها المرضة أنه لولا أخوهاغريب لماتت من النزيف، فتندهش من كلمة أخيها، وتسأل المرضة عنه فتجيبها بأنه خارج

الغرفة ينتظرها أن تفيق فتستأذنها بأن تنادي عليه فيدخل غريب وتشكره على ما فعله معها، وعلى أنه أنقذها من يد كوهين، وعلى أنه تبرع لها بدمائه وطلب منها الصمت لأن ما فعله هو الواجب ليس أكثر، وفي مطلع الصبح سمح لها الطبيب بالخروج من المستشفى، وعاد بها غريب وبينما هو في الطريق ظلت تبكي وتشتكي لغريب من أنه حرمها من أن تكون أمًا وقتل ابنها فكيف تعود له، ولكنه حكم المسيحية لا طلاق إلا لعلة الزنا، ويطلب منها غريب الصبر وأنه مثل أخيها إن احتاجت أي شيء، وعليها بالصبر، وطلب منها أن تثق به، وهو سوف يساعدها ويحل لها كل مشاكلها في القريب العاجل، وكرر عليها أن تثق به ولا تنسى أن كوهين قد قتل ابنها، ولابد أن تأخذ بثأرها وتنتقم منه وهو سوف يساعدها على ذلك، ولكن في الوقت المناسب، وتشكره على معروفه وتصعد لشقتها ويفتح كوهين الباب فإذا بها تنظر له نظرة كلها كراهية وحقد أرعبت كوهين، تركها ودخل غرفته وأغلقها عليه ونام.

يتزين المسجد ككل عام في هذا الموعد استقبالًا لذكرى مولد سيدي عماد الدين، نفس فرحة الأطفال من سنين تطل من جديد في عيون أطفال اليوم ونفس الألعاب، ولكن الأشخاص تبدلت فعادل لم يعد ذلك الشاب الصغير الذي يسير بجوار زهرة ويشتري لها اللعب، وعلي السقا في المنزل الآن يصارع المرض ويشرف على الموت، ولكن

عادل يتجول في المولد يتذكر زهرة ويبحث عنها في وجوه الحاضرين وهو يعلم علم اليقين أنه لم يجده، ونعمان الجزار يصحب أولاده للمولد، فقد كان سابقًا يتجول في المولد لمطاردة النساء والفتيات، والشيخ محمد أقعده المرض بغرفته في المسجد بالكاد يقدر على الصلاة، وحرم الناس من تواشيحه الجميلة، وعم سند أيضًا يصطحب أحفاده للعب في المولد، وكذلك صابر وأمه فوزية ذهبا للمولد ليس حبًا في المولد ولكن ليكون في خدمة الشيخ محمد، ويحاولان إقناعه بالعيش معهم ولكنه يكرر رفضه أن يعيش معهم، ويصر على أن يموت بالمسجد الذي طالما عاش فيه.

لقد أصبح صابر فتى يافعًا يعمل في المساء في محل الذهب، وفي الصباح يذهب لمدرسته فلقد أصرت الأم على أن يكمل تعليمه وهو أصر على العمل، فوجد أن عمله ودراسته هو الحل الوسط الذي يرضيه ويرضي أمه؛ فهي لازالت تعمل كخادمة في البيوت لتستطيع الإنفاق على نفسها وعلى ابنها.

تسهر الحارة تلك الليلة حتى الساعات الأولى من الصباح، وبعدها ينفض المولد وتعود الحارة كما كانت ليأتي الصباح، ويذهب كلٌ إلى عمله، فعادل يحمل بضاعته ويذهب للسوق في كل مكان وبكل بلد، برغم أن حالته قد تيسرت ويستطيع أن يشتري دكانًا ملكه، ولا يضطر للسفر ولكنه العهد الذي قطعه على نفسه أن يظل يبحث عنها، وبينما هو بالإسكندرية يفترش الأرض ببضاعته، وتلتف النسوة من

حوله للشراء، لفتت نظره إحدى الفتيات كانت تنتقي من بضاعته بطريقة مبالغ فيها دفعت عادل بأن يطلب منها أن تتوقف عن تقليب البضاعة بتلك الطريقة، فبضاعته من أجود الأصناف وسعره من أرخص الأسعار، فتخبره الفتاة بأنها تعمل لدى سيدة لا تهتم بسعر الشيء، المهم أن يكون جيدًا وخاليًا من العيوب، وأنها تريد أن تتفق معه على أن يورد لهم المخزون السنوي من الخضروات والحبوب وخلافه، وسيدتها ستدفع لها بسخاء إذا حازت البضاعة على رضاها، وتطلب منه أن يصطحبها ليعرض أسعاره، ويتفق معها على التفاصيل فيترك عادل البضاعة لغلام يعمل معه ويوصيه بأن ينتبه ويجعل عينيه مفتوحتين، وبَينما هما في الطريق تحاول الخادمة أن تداعبه وتلاطفه وهو يرد بمجاملة وأدب حتى يصلا للبيت وتدق جرس الفيلا فيفتح البواب، وتطلب منه أن ينتظر عند الباب حتى تخبر سيدتها بقدومه لكن البواب يخبرها أن والدتها قد أتت لتصحبها معها إلى الطبيب لأن أمها مريضة، ولكنها تركت خبرًا في حال عودة الخادمة ومعها التاجر أن ينتظرا حتى تعود، لكن عادل يعتذر عن الانتظار؛ فهو قد ترك بضاعته للغلام ويخشى أن يفشل في البيع، وكذلك لأنه مرتبط بموعد قطار، ولكنه أعطى الخادمة رقم تليفون المقهى الذي يجلس فيه، وحين تعود السيدة عليها أن تتصل به وتحدد ما تطلبه حتى يجهزه لها إذا اتفقا على السعر ويستأذن منهما وينصرف

عائدًا إلى السوق، وبعدها يبدأ رحلته في العودة بالقطار حتى يذهب لرعاية والديه وإطعامهما ومسامرتهما حتى يناما.

بعدما حدث في زفاف قريب سند في الصعيد، وما حدث من مشاجرة بين مصطفى وقطاطة بسبب نظلة أصبح مصطفى أكثر إدمانًا للخمر ولإهانة قطاطة، وهي قد أصبحت أكثر ملالًا منه وتسبه طوال الوقت وهو يسبها ويلعنها ويلعن زواجه منها، ولكن ماذا يفعل في هؤلاء الأطفال الصغار الذين لا ذنب لهم، لذلك فهو يصبر كما تصبر زوجة كوهين على بخله وجحوده وقسوته، ولكن الله قد بعث لها من يخفف عنها، إنه ذلك الرجل الطيب الذي يعاملها كابنته أو كأخته الصغيرة، إنه غريب السائق فهو يتحين الفرص ليصعد لها ويقدم لها الطعام والشراب، وأيضًا ليقدم لها النصيحة لكي تنتقم من ذلك اليهودي كوهين، ويطلب منها أن تفتش بأوراقه لتعلم ممتلكاته إذا مات، ولتعلم ما يخفيه عنها ذلك اللئيم حتى ترثه تحصل على مستندات تجعله تحت رحمتها لتتقي شره ويكرر طلبه في كل مرة أن تثق به فتجيبه أنها لا أحد من أهلها بتلك البلدة، وهو بمثابة الأخ والعم لها بعدما حرم على أهلها زيارتها، وأنها لو أتيحت لها الفرصة لقتلت ذلك اليهودي ألف مرةٍ بيدها، كما حرمها من أن تكون أمًا، وكما حرمها من زيارة أهلها، فشدد عليها غريب أن تفتش بأوراقه وأنه يجب أن ينصرف بسرعة قبل أن يعود كوهين الذي كان

في ذلك الوقت مع مسعود في غرفته ليخبره أن راشيل قد وصلت من روسيا، وأنها الآن في فندق بالإسكندرية وتريد أن تراه، وأن عليه الذهاب لها ليراها وتراه، فهي بمجرد وصولها لمصر طلبت مقابلته، ففرح جدًا بهذا الخبر وطلب من كوهين أن يحدد موعد سفرهما، لكن كوهين قال له: هي تريدك أنت وأنا لا أقبل أن أكون عزولًا بينكما، وأن راشيل نفسها قد طلبت أن يأتي مسعود بمفرده. فضحك مسعود وطلب من كوهين أن يبلغه عنوان الفندق.

كان كوهين من الذكاء والفراسة مما يجعله يعلم أن مسعود لا يملك النقود لكي يسافر وينفق على راشيل فأعطاه مبلغًا من المال وضعه في جيبه وطلب منه ألا يبخل على راشيل في تلك المقابلة، فشكره مسعود ووعده بأن كل قرشٍ قد أخذه منه هو بمثابة دين في رقبته، فاستأذن كوهين بالانصراف وترك مسعود يحلم باللقاء وكيف يستعد له فيذهب لشراء الملابس الجديدة، وبينما هو يسير بالحارة يستوقف مسعود غريب السائق ويطلب منه توصيله إلى محل بيع الملابس ويركب معه التاكسي ويتحرك غريب بسيارته وفجأة يُغير غريب وجهة السيارة فيقول له مسعود إن المحلات ليست من هذا الشارع لكن غريب لا يجيبه، ويدخل به إلى أرض زراعية ومسعود يصرخ ويستوقفه ويسبه ويأمره بأن يتركه ينزل من السيارة فتقف السيارة وينزل مسعود مفزوعًا غاضبًا يسب غريب، وبمجرد أن لمست قدماه الأرض يجد

مسعود حرسًا كثيرًا قد أحاطوه من كل مكان واصطحبوه إلى باب فيلا بحدود تلك الأرض الزراعية يصيح مسعود متعجبًا ماذا يحدث وماذا يريدون منه، فيطلب منه غريب أن يصمت وسيعلم كل شيء الآن، فماكان من مسعود إلا أن التزم الصمت وسار معهم مرغمًا خاضعًا. كانت الفيلا كبيرة مليئة بالغرفات، على كل غرفةٍ يقف حارس، وكل حارس بمجرد أن يرى غريب يقوم بتحيته تحية عسكرية.

يدخل غريب ومسعود إلى غرفة يجلس بها رجلٌ تغطي كتفاه الرُتب وتغطي بدلته العسكرية النياشين، إنه رجلٌ ذو مهابة فيحيي غريب ذلك الرجل بتحية عسكرية، ويحيه الرجل ويسأله عن حاله بقوله: كيف حالك سيادة الصاغ ناصر؟

يصيب مسعود الذهول: معقول الصاغ ناصر هو نفسه الأسطى غريب السائق، فيطلب منهما الجلوس فيجلس مسعود والصاغ ناصر ويرحبان بمسعود ويطلبان منه أن يصغي لهما، وأنه لولا الصاغ ناصر لكان سوف يحاكم بالخيانة والإعدام، وأن الصاغ ناصر هو الذي رشحه للعمل مع البوليس قبل أن يتورط أكثر وأكثر، وسأله الرئيس عن كوهين اليهودي وعن طبيعة علاقته به وعن طبيعة تجارته فأخبرهم مسعود بأنه يتاجر في كل شيء ويرابي بنقوده مع الناس ثم يسأله عن سارة فيتظاهر مسعود بأنه لا يعرفها فيكرر الرئيس سؤاله عن علاقته بسارة، ويكرر مسعود نفيه بمعرفة شخص بهذا الاسم فيخبره غريب، أو الصاغ ناصر،

أن سارة هو الاسم الحقيقي لراشيل فيدرك مسعود أن الأمر جدٌّ خطير وأن ثمة كارثةً بهذا الموضوع، ويخبرهم بعلاقته بها وطريقة تعارفهما، وأنها هي التي أخبرته بأن اسمها راشيل فيقاطعه الصاغ ناصر بأنها عضو بشبكة تجسس، وعقوبة التجسس هي الإعدام، وأخرج الرئيس من ملفٍ يضعه على مكتبه صورة لسارة، أو من تطلق على نفسها راشيل، فيصيح مسعود نعم إنها صورة راشيل فيبلغه الصاغ ناصر أنها تحت المراقبة منذ أن كان مع كوهين في مولد أبي حصيرة وأنه لو تركه معه لكان مصيره هو الإعدام لكن إعدامه لن يفيد البلد بالقدر الذي يفيدها لو تم القبض على شبكة التجسس التي تعمل ضد مصالح البلد، فما كان من مسعود إلا أن ركب موجة الوطنية وتظاهر بأنه يبيع نفسه فداءً وهو مستعد لعمل أي شيء للدفاع عن مصر من أي خطر، ويشرح له الرئيس الخطة التي سيتعامل بها مع راشيل غدًا، وعليه أن يتظاهر بأنه لا يعلم عنها أي شيء، كما يتظاهر بالوطنية الآن، وعليه أن يجعلها تحس أنه يعشق المال ومستعد أن يفعل أي شيء من أجله، وأبلغه أن رجال المخابرات سوف يتابعونه في كل تحركاته دون أن يشعر، وشدد عليه أن ينسى تمامًا حكاية الأسطى غريب، وأن يعامله في الحارة كما كان يعامله في السابق وحذره من خطورة مهمته وأن لو أفشى تلك الأسرار لأي شخص فسيكون مصيره الإعدام وإن أخطأ فسوف يقتله اليهود، وهنا تجمد

الدم في عروق مسعود وتظهر على وجهه علامات الخوف، ولكنهم طمأنوه بأنه تحت أعينهم، وركب السيارة وفي الطريق إلى الحارة أعطاه غريب قميصا وبنطلون، وقال له: لقد نسيت أن تشتري الملابس فشكره مسعود ووصل الحارة وكلٌّ يتدبر أمره. كان مسعود حائرًا يفكر في مصيره الذي سيواجهه لو علِم اليهود بأمره مع المخابرات، ونفس المصير لو علمت المخابرات بعمله مع اليهود.

في مكتب المخابرات يلتقي الرئيس والصاغ ناصر ليبحثا عما إذا كان ناصر واثقًا من مسعود ومن نجاحه في مهمته، فأكد له الصاغ ناصر أنه واثق من مسعود ليس لأنه وطني أو ذو سمعة طيبة، فهو من خلال حياته في الحارة قد سمع الكثير والكثير عن انحلاله وانعدام خُلقه وخيانته، ولكنه أجبن من أن يغامر بحياته، وأنه لم يكن هناك وقت كافٍ لكي نزرع أحدًا من رجالنا للقيام بتلك المهمة لأن راشيل لا تمكث بأي مكان فترة طويلة، وحريصة جدًا في تحركاتها واختيار من يتعاملون معها، ولولا أن كوهين هو من رشح مسعود لهذه المهمة لما نزلت راشيل لتجنيده بهذه السرعة .

في منتصف الليل يسمع مسعود دقات على بابه ويفتح مذعورًا ليجد كوهين وقد وقف بباب الدار فتسمر مسعود في مكانه ولم ينطق بكلمة واحدة فيسأله كوهين بأنه سيظل واقفًا على الباب دون أن يأذن له بدخول غرفته؟ فيعتذر له مسعود ويطلب منه الدخول ويعلل ارتباكه بأنه قد قام من

نومه مفزوعًا، ويدخل كوهين ويجلس محدقًا في مسعود دون أن ينطق بكلمة، ومسعود يتصبب عرقًا فيخبره كوهين بأنه قد علم كل شيء، وأين كان مع غريب، فيهمهم مسعود بكلام غير مفهوم ولا يجيب بكلمة واضحة ويتابع كوهين حديثه أنه قد علم كل شيء، وأن مسعود خذله وخان ثقته فيه وأنه مصدوم مما حدث، لماذا يحاول مسعود أنه يؤذيه وهو يسعى له في الخير، ويسأله كوهين: هل ظننت أنني لن أعلم بالأمر؟! ويخبره بأنه مخطئ لو ظن أن شيئًا يخفى على كوهين. فيقف قلب مسعود عن النبضات ويتصبب عرقًا وينهار، وكاد أن يفشي بكل الأسرار إلى كوهين، ويخبره أيضًا أنه قد علم الأمر من غريب نفسه، فغريب قد أخبره أنه ذهب بصحبتك لشراء ملابس جديدة من غير محلات كوهين وهو عاتب عليه فِعلته تلك، فهو أعطاه المال فكان يجب عليه أن يشتري من محلات كوهين ليعود عليه بالنفع. بدأ مسعود يلتقط أنفاسه ويهدأ من روعه، وكوهين مستمر في وصلة العتاب، ثم يتوقف فجأة، ويخبره أن راشيل تنتظره غدًا بعد الغروب في فندق على البحر بالإسكندرية، وأن يذهب هناك مستقلًا القطار فقط، ولا يستعين بغريب، فهو رغم ثقته به إلا أنه جديد على الحارة، ولا نعلم عنه أي شيء، ويستأذن كوهين بالانصراف وينام مسعود كالقتيل من الرعب .

في الصباح يدخل المسجد رجل تبدو على وجهه علامات الإجرام ويسأل عن الشيخ محمد الضرير، فيشير له أحد المصلين لغرفة الشيخ محمد، ويدخل ذلك الرجل إلى الشيخ فيجده مريضًا فيلقي عليه السلام ويعرفه بنفسه وأنه زميل أبو العز في السجن وأنه خرج من يومين، وأن أبو العز قد كلفه بأمانة يحملها إليه، فسأله الشيخ محمد عن الأمانة التي قد تأتي من أبو العز فقال له الرجل: إن أبو العز يقول لك أنه تاب إلى الله، ويشعر بأن الأجل قد حان، ويريد أن يعترف بابن ابنه قبل أن يموت كي يرثه، وهو يعلم أن صابر وأمه يحبان الشيخ محمد، ويتمنى أن يساعده في الإصلاح بينه وبين صابر وأمه ونسيان الماضي، وأنه الآن يرقد في مستشفى السجن وربما لا يعيش طويلاً، وأن الأعمار بيد الله، وأنه يريد أن يقابل ابن ابنه صابر مع فوزية في وجود الشيخ محمد منه عنوان المستشفى وموعد الزيارة، ويبلغه أنه سيعرض الأمر على أصحاب الأمر والله هو الهادي ويودعه الرجل وينصرف ويقوم الشيخ محمد ويرتدي ملابسه ويذهب إلى فوزية في قمة مرضه، يتوكأ على عصاه وعلى أحد شباب الحارة باليد الأخرى، ويصعد درجات السلم بصعوبة وبطء ويطرق باب فوزية فتفتح له، ولحسن الحظ يجد صابر وقد عاد لتوِّه من مدرسته ويلقي عليه السلام، فيرد صابر التحية ويُقبل يد الشيخ محمد كما تعوَّد دائمًا، فيحاول الشيخ محمد أن يسحب يده حتى لا

يُقبلها صابر فيحزن صابر لأن الشيخ يحرمه من بركته ومن أن يُعبر له عن امتنانه لما فعله معه ومع والدته ويكفي أن قد منحه اسمه ويكفي أنه ساعده في حفظ القرآن كاملاً وأنه لو يقبل الشيخ محمد لقَبّلَ صابر قدمه وليس يده، فيدعو له الشيخ محمد بالهدى والصلاح فتسأله فوزية عن سبب خروجه من المسجد وهو بتلك الحالة وأنه كان يتوجب عليه أن يبعث أحدًا لهم وهم سينتقلون له بغرفته حتى يتجنب تلك المشقة، فيقاطع صابر أمه قائلاً لها إنه يعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى تأجيل، وأن الأمر يتعلق بشخص غير الشيخ محمد فيهنأه الشيخ على فراسته، ويبدأ حديثه عن العفو والغفران والإحسان لمن يسيئ ويقُص عليهم قصة الخادم مع الأمير حين سكب الخادم الماء المغلي على الأمير مما أغضب الأمير فقال له الخادم وكان فصيحًا :

– «والكاظمين الغيظ».

قال له الأمير:

– كظمتُ غيظي.

فقال له الغلام:

–«والعافين عن الناس».

فقال له الأمير:

– عفوت عنك.

فقال له الغلام :

– «والله يحب المحسنين».

فقال له الأمير :

– اذهب فأنت حر.

وسأل الشيخ محمد صابر وفوزية هل هما أعلى قدرًا من الأمير؟ فأجابا بالنفي، ولكن صابر سأل عمن يريدهما أن يعفيا ويصفحا عنه وبالطبع هو شخص ليس بأقل قدرًا من الخادم فيُعجب الشيخ محمد بفطنته وبلاغته فيجيبه الشيخ محمد أنه أتى حاملاً لرسالة من جده أبو العز فيقاطعه صابر بأنه ليس جده، فأمه قد روت له كل ما حدث، وأن حساب أبو العز وابنه عند الله لكن فوزية أمرت صابر بعدم مقاطعة الشيخ وطلبت من الشيخ محمد أن يقول رسالته لآخرها، وأمرت صابر بعدم التسرع في الرد، فدعا لها الشيخ محمد بتمام نعمة العقل، وشرح لهما ما أتى به الرجل من السجن وأن أبو العز مشرف على الموت ويستعد للقاء وجه ربه الكريم، وهو حاكم عادل لا تضيع عنده الحقوق، وبدأ يطلب منهما الرحمة برجلٍ مودعٍ للدنيا، يريد أن يتوب وسأل صابر إن كان سيقفُ بينهُ وبين ربه؟! فسأله صابر: وكيف أقف بينه وبين ربه؟! فقال له الشيخ: إن أبو العز يريد أن يرجع إلى الله وظلمه لفوزية وصابر يحول بين توبته لأن الله لا يغفرُ لظالم

حتى يعفو عنه المظلوم أو يقتص منه، وسألهما ثانيةً: هل ستقفان بين عبدٍ يريد أن يرجع إلى ربه؟ وهنا استغفر صابر وفوزية والتمسا من الشيخ المعذرة عن حديثهما لأنه نابع من مرارة الظلم، فأخبرهما الشيخ بموعد الزيارة ومكانها وأنه قد رتب مع الصول عتمان بأن يتولى استخراج تصريح للزيارة بأقرب فرصة، وسيخبرهما قبلها بيومين على الأقل ويتركهما وينصرف، لكن صابر يُلح عليه أن يجلس معهما لتناول الغداء ويعتذر له الشيخ وينزل معه صابر ليوصله إلى المسجد وفي الطريق يبلغه الشيخ محمد أن يعلم أن الأمر صعب على فوزية وعليه، ولكن عليه أن يصبر لعل الله يريد الخير له، ويصلان المسجد ويصليان ركعتين تحية للمسجد وبعدها يدخل الشيخ إلى غرفته ليستريح ويتركه صابر ليعود إلى أمه كي يستعد للذهاب للعمل .

يذهب مسعود لمحطة القطار ينتظر وصول القطار المتجه للإسكندرية وهو مرتبك وخائف، ويلوح في الأفق القطار ويقترب صوته ويقف في المحطة ويركبه مسعود يفكر طوال الطريق بمصيره المجهول، ويصل القطار إلى الإسكندرية ويذهب إلى العنوان حيث الفندق فيبهره روعة المكان وفخامته، ويسأل عن راشيل فيجيبه مسئول الخدمة بأنه سيبلغها وأنها تركت رسالة وحجز غرفة باسم مسعود جمال الدين فيجيبه بأنه هو مسعود جمال الدين فيعطيه مفتاح الغرفة ويُخبره بأن غرفته ملاصقة لغرفة السيدة راشيل،

ويطلب من عامل الفندق أن يصطحبه حتى غرفته، ما إن يصل مسعود الغرفة حتى يصيبه الذهول من جمالها وفخامتها، يتحسس كل شيء بها ويقارن بينها وبين غرفته حتى تصيبه نوبة من الدهشة والسعادة معًا، لحظات ويرن جرس تليفون بجواره، إنه صوت راشيل تحمد الله على سلامته وتبلغه أنها تشتاق له كثيرًا وتطلب منه أن ينزل إلى بهو الفندق لتقابله وبدون أن يفكر وبسرعة نزل مسعود للبهو ينتظر وصولها وعيناه على السلم ليجد مسعود امرأة غاية في الجمال وملابسها غاية في الإثارة والأناقة، والكل في بهو الفندق يترقب خطواتها ويتطلع لها، كانت تتجه نحو مسعود ولما اقتربت منه أكثر كانت المفاجأة إنها راشيل لم يعرفها مسعود بتلك الملابس وهذه الزينة، لكنها لم تخطئه وعرفته مباشرةً وأتت وسلمت عليه وأخبرته أنها عادت هذه المرة من أجله، وأنها تركت أعمالها هناك من أجله أيضًا، وأنها لا تدري ماذا فعل معها لتتعلق به بهذه الدرجة، وهو مذهول من ذلك الجمال الذي قد يجعله بطلًا أو يكون سببًا في قتله، ولكنه يتماسك ويتظاهر بأنه افتقدها ويسألها عن سبب حجز الغرفة فتجيبه بأنها ستقيم أسبوعًا في مصر، وتتمنى أن يكون بجوارها وتعتذر له إن كانت ستعطله عن أعماله في تلك الفترة لكنه يجيبها بأنه يعاني هذه الأيام من البطالة فتخرج من حقيبتها مبلغًا كبيرًا من المال، ولكنه يرفض أن يأخذه منها لكي يوهمها بأنه إنسان

وعنده مبادئ ولكن عينيه قبل يداه تكاد أن تأخذ المال، لكنه يتذكر الصاغ ناصر وحبلِ المشنقة فتجيبه راشيل بأن سبب تعلقها به هو اعتزازه بنفسه برغم ظروفه الصعبة، واعترفت له بحبها وإعجابها بشخصيته ورجولته، وعرضت عليه أن يخرجا ليتنزها في شوارع الإسكندرية وعلى البحر الذي تحبه وتجاوب معها مسعود بسرعة وعاد في ساعات الصباح الأولى وقد أرهقه التعب ودخل غرفته لينام كالقتيل .

في الصباح يحمل عادل بضاعته على سيارة غريب حتى محطة القطار وبينما هو يستعد لذلك إذا بالمعلم مرعي صاحب المقهى الموجود على ناصية الحارة يناديه ويطلب منه الحضور سريعًا ويُخبره بأن هناك اتصالًا من أجله فيلتقط منه عادل سماعة التليفون ويرد فإذا بها الخادمة التي قابلها في السوق تطلب منه أن يتحدث مع سيدتها للاتفاق على الطلبات، وإذا بصوت رقيق عذب يثني عليه أخلاقه وأمانته، مما شجعها على أن تطلب منه أن تتعامل معه بكل خزين المنزل طوال العام بعد أن توفي التاجر السابق الذي تتعامل معه وتمليه قائمة من الطلبات وهو يقول أسعاره التي لم تناقشه فيها لأن أسعار عادل كانت معقولة إلى حد كبير بالنسبة لها، فيتفقان على موعد التسليم وهو غدًا إن شاء الله، وتشكره ويشكرها لثقتها به ويعود ثانيةً إلى الحارة مؤجلا سفره حتى يذهب إلى الوكالة لتجهيز طلبات تلك السيدة .

مـازال مسـعود هائمًـا مـع راشـيل الـتي تطلـب منـه الحضـور إلى غرفتهـا، فـإذا بهـا تنتظـره بملابـس شـفافة يسـيل لهـا لعاب مسـعود وتبـدأ في نصـب شـباكها حولـه وتُخـبره بأنهـا تنـوي أن تُقيـم مشـاريع كبـيرة في مصـر، ولكـن هنـاك مشـكلتين: المشـكلة الأولى مـن سـيتولى إدارة تلـك المشـروعات أثنـاء تواجدها في روسـيا وتلـك المشـكلة قـد انتهـت بعـد ظهـور مسـعود بحياتهـا، فهـي أصبحـت تثـق بـه ثقـة لا حـدود لهـا، أمـا المشـكلة الثانيـة فهي تخشـى مـن الأوضـاع السياسـية بمصـر وتقلباتهـا وأن أي تقلـب قـد يفقدهـا كل ثروتهـا، لذلـك فهـي تريـد بـأن تعلـم المزيـد عـن السـوق المصـري والوضـع الأمـني بمصـر، وهـل مصـر مُقبلـة علـى حـروب أم لا؟ وأن عليـه أن يعاونهـا في ذلـك بأن يرصد كل شـيء يـراه أو يسـمعه يتعلـق بالجيـش والشـرطة، وعـن آراء النـاس ومـدى رضائهـم عـن الحكومـة، وعليـه أن يسـأل أيضًـا الجنـود إن كانـت هنـاك اسـتعدادات غـير عاديـة في الجيـش أم لا، وهـي سـوف تقـوم بدراسـة تلـك المعلومـات لمعرفـة مـدى ملائمـة السـوق المصـري لمشـروعاتها، وأمهلتـه شـهرًا لكتابـة التقريـر، وأنهـا سـتأتي المـرة القادمـة لتتسـلم التقاريـر، وطلبـت منـه الحـرص والسـرية لأن التجـارة أسـرار وربطـت بـين سـرعة عمـل تلـك المشـروعات بمصـر وبـين دقـة التقاريـر وأعطتـه ورقـة مكتوبًا بهـا أسـئلة كثـيرة وأشـخاص وفئـات محـددة ليسـألها فوضـع الورقـة في طيـات ملابسـه الـتي قـام بخلعها ليكمـلا ليلتهمـا معًا.

وصل تصريح الزيارة إلى الشيخ محمد عن طريق الصول عتمان فأرسل على فوره في طلب صابر وفوزية ليعطيهما التصريح ويوصيهما بمعاملته بالحسنى، وأن الله عند المريض ويذكرهم بالحديث الذي يقول : «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ...». وأوصاهما أن يسامحاه ويقبلا توبته حتى يلقى الله بقلب سليم، ويطمئنه صابر ويروي له الحديث الذي يقول : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». فيدعو له الشيخ محمد بالصحة والهداية وأن يبارك الله له في أمه وجلسا معه يطعمانه ويرتبان متاعه وينظفان حجرته وهو يضحك ويدعو لهما بالبركة .

يحمل عادل بضاعته ككلِّ صباح مستقلًا القطار ويأخذ بعدها عربة توصله إلى فيلا تلك السيدة ويستأذن البواب في الدخول فيدخل وتستقبله الخادمة في دلالٍ ورغبة، وهو يرد عليها بمجاملات لا أكثر وتطلب منه الانتظار بإحدى غرف الفيلا المعدة لاستقبال الضيوف حتى تنزل سيدتها لتقابله، لحظات قليلة وتقترب خطوات نحو عادل ترحب به وإذا بزلزال قد ضرب عادل وتلك السيدة أفقدهما

وعيهما وأصابهما بصدمة رهيبة، إنه الزمن يعود للوراء، إنها زهرة، نعم إنها هي قد تبدلت ملامحها قليلاً بحكم السن، وصحيح أن ملامحه هو الآخر قد اختلفت قليلاً في نظرها ولكن محال أن يخطئ كلٌّ منهما الآخر فتنطق زهرة اسمه بشوقٍ ودهشةٍ، وهو يردُّ عليها باسمها بشوقٍ أم لابنها الضائع وتذهل الخادمة وتسأل إن كانت سيدتها تعرفه وتجيبها السيدة إنها معرفة العمر وتسأله زهرة هل هو نفسه من أتى الأسبوع الماضي فلم يجدها فأجابها بنعم وأن الله قد كتب لهما اللقاء في تلك اللحظة فقط، وسألته: ماذا جرى له بعد ذلك اليوم الذي رآهما فيه الحارس معًا؟ فحكى لها قصته مع السجن وتحمله طوال هذه السنوات، وكيف أنه عمل في التجارة خصيصًا في الإسكندرية كي يبحث عنها وأنه كان واثقًا أن الله سيجمعهما وسألها عن أخبارها فروت له أن أباها قد أرغمها على الزواج بشخصٍ آخر كان سيء الطباع ويسيء معاملتها خصوصًا بعد وفاة والدها، وأنه كان أيضًا لا ينجب، وأنها تحملت عدم إنجابه وحرمانها من الأمومة، ولم تتحمل المهانة والمعاملة السيئة، ولما فاض بها الكيل طلبت الطلاق وحصلت عليه منذ عام. وجلسا يتذكران الماضي وطلب منها أن يأتي في الغد بعدَ العمل ليصحبها ليتنزها معًا، وأخبرته أنها منذ وفاة والدها لم تعرف للزهرة طريقًا لكن عادل يسألها عن نهاية تلك العلاقة وكيف سيقول الناس إنه يطاردها من

أجـل ثروتهـا لكنهـا تنهـار وتقـول لـه : أبعـدُ عشـر سـنين أو أكثـر وبعـد هـذا الحرمـان والفـراق والسـجن مازلـت تخشـى كلام النـاس ولا تخشـى أن نفـترق مجـددًا؟! فيمسـك عـادل يدهـا ويضغـط عليهـا ويطمئنهـا ألا يفترقـا مُجـددًا ويسـتأذنها في الرحيـل ليلحـق بالقطـار. كان قلبُـه يسـابق القطـار مـن الفرحـة، وبمجـرد أن يدخـل داره يحتضـن أمـه وهـو يُغـني وهمـا سـعيدان لسـعادة ابنهمـا فيخبرهمـا أنـه قـد عثـر عليهـا فتحـذره أمـه منهـا حتـى لا يلاقيـه نفـس المصـير ولكنـه يُخبرهـا بوفاة شـريف بـك وطلاقهـا مـن زوجهـا فتتمنـى لـه الأم السـعادة وينـام حالمًـا بموعـد الغـد الـذي سـيجمعه مـع حبيبـة العمـر بعـد رحلـة فـراقٍ اسـتمرت عشـر سـنين.

يذهـب عـادل لهـا في اليـوم التالـي ويتنزهـان في كل مـكان فتطلـب منـه زهـرة أن يتوسـع في تجارتـه، لكنه اعتـذر لها لضيق ذات اليـد فاقترحـت عليـه أن يشـاركها مناصفـةً هـي بالمـال وهـو بالتجـارة والإدارة، لكنـه غضـب منهـا ورفـض ولكـن بعـد إلحـاح أقنعتـه بالفكـرة وذلـك كـي لا يشـعر أنـه أقـل منهـا وكـي يتزوجاً ولا يشـعر عـادل بالحـرج، ويكفيهمـا مـا فقـدا مـن العمـر بعيديـن عـن بعضهمـا وأخـذا يرتبـان للتجـارة والـزواج في وقـتٍ واحـدٍ.

لم تكـن اسـتعدادات عـادل بأقـل مـن اسـتعدادات المخابـرات المصريـة الـتي تُجهـز مسـعود للتعامـل مـع هـذه الشـبكة في الفترة الـتي سـتغيبها راشـيل عـن مصـر وعودتهـا لتأخـذ التقريـر مـن مسـعود وكانـت المخابـرات هـي التي تجيب عـن أسـئلة التقرير،

وتدرب مسعود في نفس الوقت على التظاهر بالصدق وأساليب التعامل معهم ومع كوهين بصفة خاصة، فوضع كوهين يسمح له بمراقبة مسعود ليل نهار، لكن غريب كان له دور كبير في توجيه مسعود وتحركاته في الحارة، وكان مسعود ينزل بالفعل إلى المناطق والأشخاص الموجودين في التقارير ويسأل بالفعل وهناك من يراقبه من المخابرات وكوهين.

كان كوهين مسرورًا بأداء مسعود ونشاطه وتحمسه، ويرسل التقارير اليومية عنه إلى راشيل بواسطة جهاز صغير يخفيه في حجرة منزله.

قد حان موعد زيارة أبو العز لذلك ذهبت فوزية وصابر له في المستشفى حيث يرقد تحت الحراسة، وقد تبدل شكله تمامًا وأصبح رجلاً ضعيفًا هزيلاً ليس هو صاحب السلطان والجبروت كما كان سابقًا، وعاد شريط الذكريات بفوزية للوراء لتتذكر اغتصابها وضربها وطردها ومذلتها وتنظر لوجه أبو العز وتريد الرجوع والخروج من الغرفة ولكن صابر يمسك بيدها ويطلب منها الصبر ويصحو أبو العز على صوت صابر يلقي عليه السلام فيسأله ولا يكاد ينطق كلمة مفهومة من أنتما؟ فيجيبه صابر إنه صابر ابن فوزية. فيصرخ أبو العز: صابر بن أدهم. ويصمت صابر ويطلب منه أبو العز أن يدنو منه، ويدنو صابر أكثر فيشده أبو العز لحضنه وينهار بالبكاء، ويطلب منه أن يسامحه، ويطلب من فوزية أن تسامحه لأنه مشرفٌ على الموت،

فتسامحه فوزية وتقول إن الله عوضها عما فعله بها بابنها صابر فيطلب منهما أبو العز بأن يستمعا لوصيته الأخيرة؛ فلم يبق من عمره الكثير، وأخبرهما أنه سوف يتنازل عن كل ثروته لصابر بن أدهم وسوف يعترف بأنه ابن ابنه، فيسأله صابر: وهل لو قبلت تلك الأموال وأردت أنا وأمي الذهاب إلى الحج فهل سيقبل الله حجنا بتلك الأموال؟! فالله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا! فيبكي أبو العز. ويقول: لن يقبلها الله منكما. فيخبره صابر أنه حافظٌ لكتاب الله فكيف يقبل مالًا لا يقبله الله، وأخبره أن ما نبت من سحت فالنار أولى به، والسحت هو كل أنواع الحرام، وأن عليه أن يأخذ رأس ماله فقط، والباقي يحاول أن يرد الظلم عمن ظلمه ويصلح بهذا المال ما أفسده بالمخدرات ويتوب إلى الله عسى الله أن يتوب عليه ويغفر له، فيخبره أبو العز أن المنزل الذي يقيم فيه والمحل الذي أسفله هو من مال حلال ورثه عن والده، واستحلف صابر أن يقبله منه لأنه حقه وميراثه ويبكي ويتوسل له وينظر لفوزية ويقول لها: لابد من أن تعيشي في المنزل الذي حرمتكِ منه منذ سنين. ويتوسل لها أن تقنع صابر بقبوله فوافق صابر وبكى واحتضن جده وطلب منه أبو العز أن يدعو له ولوالده أدهم بالمغفرة والرحمة لعل الله يسامحهما ولا يحرمه من الزيارة ما تبقى له من عمره. ويدخل الطبيب ويطلب منهما أن يتركوه ليأخذ العلاج ويستريح، ويسأله صابر عن حالته فيهمس الطبيب ويسأله:

من أنت؟ ويُخبره صابر بأنه حفيده. فيربت الطبيب على كتفه ويقول: إن الأمل في الله، وأن جده يعاني الكثير من الأمراض، ولولا أنه سجين لكان قد سمح لهما بأن يأخذاه معهما ليحيا ما بقي له من أيام وسط أهله، فيبكي وتبكي فوزية ويذهب صابر لجده يُقبله ويحتضنه فيسأله جده عما إذا كان سيزوره ثانيةً فيغالب صابر دموعه ويجيبه بنعم، ويطلب منه أبو العز بأن يجعل له لنصيبًا من دعائه، وأن يدعو بالرحمة لوالده ويسامحه، وأعطاه مظروفًا كبيرًا يحتوي على أوراق وقال: إن كل ممتلكاتي الآن باسمك وأنت تفعل ما شئت لكي تصلح ما أفسده أبوك وجدك. ويأخذ صابر المظروف ويعود مع أمه لا لغرفتهما، ولكن للشيخ محمد ويعرضان عليه الأمر، فيقترح الشيخ محمد التبرع بالمال لملجأ أيتام، وأن يقيم صابر مع أمه في الدار، ويبدأ صابر في فتح المحل الموجود أسفل الدار، فذلك حقهما الذي لا غبار عليه فيطمئنان إلى رأيه ويودعانه وينصرفان استعدادًا للإقامة في البيت الجديد .

في تلك الأيام غادر الحارة عائلتان هما عائلة علي السقا؛ فقد تزوج عادل من زهرة وقرر الإقامة في فيلتها وعمل مشروعا تجاريا معها، وكذلك غادرت الحارة فوزية وابنها صابر فقد ذهبا إلى الحارة المجاورة حيث بيت أبو العز، تلك الدار التي شهدت طرد فوزية ذليلة، وهاهي الآن تعود وهي مالكة لتلك الدار، ويبدأ صابر بتجهيز

المحل ليفتحه ورشة لإصلاح المشغولات الذهبية، ويتبرع بالمال الذي تركه جده لملاجئ الأيتام وكان دائم الزيارة لجده بمستشفى السجن .

بدأ مسعود يُكثر من لقاء راشيل وتطلب منه الكثير من المعلومات وهو يجيب بالتنسيق مع المخابرات، وفي يوم طلبت منه راشيل أن يلقاها وإذا بها تعرض عليه التقارير التي كتبها وصور فاضحة لهما معًا وصور وهو يأخذ منها النقود وتسجيلات بصوته وهو يدلي لها بمعلومات حساسة وخطيرة عن أمن مصر وتكشف له عن وجهها الحقيقي وتطلب منه صراحة العمل معها كجاسوس ويتظاهر بالخوف والرفض، ولكنها تطمئنه بأن الأمر لن يختلف عن الوضع الحالي، وكل الفرق أنه فقط قد عرف طبيعة عمله، وهددته بالقتل والإبلاغ عنه في حال تم تسريب حرف واحد من هذا اللقاء، فتظاهر ثانيةً بالخوف والصدمة من خداعها، ولكنها ترددت له ثانيةً وداعبته في لطف وأبلغته عن المقابل المادي الضخم في حال الموافقة وهي تعلم أنه يحب النقود ويحتاج إليها فيتظاهر مسعود بأنه غير موافق على المقابل المادي لأنه يراه زهيدًا على المخاطرة بحياته، وأنه يريد المزيد من المال، فتوافق راشيل وتُخبره أنه مُقبِل على مرحلة جديدة من التدريب على يد مجموعة متخصصة كي يتمكن من استخدام الأجهزة الحديثة في الاتصال، وتطلب منه ألا يغادر غرفته في الفندق حتى الغد فيقبل مسعود،

ويظل يومًا كاملاً يفكر في المجهول الذي ينتظره، وفي اليوم التالي يأتي له اثنان ويصطحبانه في سيارة وينطلقان به وفي الطريق يضعان على عينيه عصابة حتى لا يرى أين سيذهب، ويدخل غرفة بها عدة أشخاص فيرفعون الغمامة من على عينيه ويبدأون في سؤاله وهو يجيب عليهم وفي أثناء ذلك يقتحم البوليس المكان ويقبض على كل من فيه بما فيهم راشيل وبنفس التوقيت تقتحم قوة أخرى منزل كوهين بقيادة الصاغ ناصر وتقبض عليه، وهو غير مُصدق أن الصاغ ناصر هو غريب السائق، وتبحث قوة البوليس عن جهاز الإرسال الذي يبعث بها رسائله ولكن دون جدوى ولكن تخرج زوجته بمفاجأة حيث إنها كانت تراقبه كما أمرها غريب السائق لأنها كانت تثق به، وأرشدت عن مكان إخفاء جهاز الإرسال، وتمت محاكمتهم جميعًا، وكان الحدث مسار حديث الصحافة، وأصبح من يومها مسعود بطلاً قوميًا؛ فالكل يناديه بالبطل، وقامت الدولة بتكريمه وصرف معاش شهري له نظير تعاونه في القبض على الشبكة .

لقد تأخر آذان الظهر بمسجد عماد الدين على غير العادة مما دفع الناس للتساؤل عن السبب، وذهبوا للمسجد واتجهوا لغرفة الشيخ محمد فإذا به نائمٌ على فراشه حاولوا إيقاظه لكن دون جدوى، لقد مات الشيخ محمد، لقد كانت مصيبة بالنسبة لفوزية وصابر؛ فهو والدها وأهلها وهو والد ابنها ومعلمه، وأُقيم له العزاء بالمسجد، وكان أول من يتلقى

عـزاءه هـو ابنـه صابـر. تبكـي الحـارة كلهـا مـن أجـل ذلـك الشـيخ الـذي قضـى عمـره في المسـجد، ومـات فيـه، وصـار المسـجد بـلا شـيخ، إنهـا فرصـة مسـعود ولابـد أن يسـتغلها، وبسـرعة اسـتغل حـب النـاس لبطولتـه وانتقـل للعيـش في غرفـة الشـيخ محمـد، وبـدأ يرتـدي ثـوب الشـيوخ ويتظاهـر بالتقـوى والـورع ويـؤم النـاس في الصـلاة، ويثـق بـه النـاس بالرغـم مـن أن سـهراته عنـد مصطفـى وقطاطـة لم تنقطـع، وبـدأ يحفـر أسـفل ضريـح سـيدي عمـاد الديـن بحثًـا عـن الكنـز، كان يحفـر قليـلاً قليـلاً حتـى لا يثـير شـكوك أحـد، ولمـا تعـب مـن العمـل وحـده ذهـب لمصطفـى وأخبرهـم بحكايـة الكنـز، ومـا كان مـن مصطفـى إلا أن سـال لعابـه هـو الآخـر علـى الكنـز فوافـق علـى الحفـر معـه، وكان يدخـل المسـجد ليـلاً كزائـر لمسـعود لكنـه يحفـر معـه، وعندمـا وصـل بالحفـر لبـاب الكنـز كانـا لا يسـتطيعان فتحـه بسـهولة، لذلـك قـررا تجهيـز المعـدات اللازمـة لرفعـه وزحزحتـه، واتفقـا أن يكـون مسـاء الغـد هـو يـوم فتـح الكنـز، في ذلـك اليـوم ذهـب مسـعود ليجلـس في شـقة مصطفـى ومعـه قطاطـة واسـتأذنه مصطفـى بالنـزول لشـراء سـجائر وأغلـق البـاب وخـرج، مسـعود يجلـس مـع قطاطـة وإذا بهـا تسـأله عمـا إذا كان لازال يحـب نظلـة بعـد كل هـذه السـنوات فيجيبهـا بأنـه لم يحـب غيرهـا وحبـه هـذا هـو الـذي دفعـه لأن يدبـر لهـا مـع كوهـين بمسـاعدة ميمـون القرداتـي بـأن يسـرق ملابسـها وأيضًـا اتفاقـه مـع صاحبـة حمـام السـيدات لكـي تفضـح جسـدها ولـولا

هـذه المكيـدة لكانـت نظلـة الآن زوجـةً لمصطفـى وقـال لهـا: إنـه فعـل كلُ شـيء ولكـن قطاطـة هـي الـتي ربحـت كلَ شـيء، وأنه فعـل ذلـك أيضًـا انتقامًـا مـن شـفيق الـذي صفعـه علـى وجهـه وأهانـه، كان مصطفـى خـارج الغرفـة قـد نسـي نقـوده ولم ينـزل للشـارع وعـاد وقـد سمـع كل كلامهمـا دون أن يشـعرا بأنـه قـد عـاد وذهـب ثانيـةً لبـاب الشـقة وفتحـه بهـدوء ثـم دفعـه بقـوة ليفهمهمـا أنـه عائـد في هـذه اللحظـة فغـيرا كلامهمـا لموضـوع آخـر، وأخـذا يرتبـان قسـمة الكنـز وفتحـه ونقـل محتوياتـه، وتحـين صـلاة العشـاء وتصلـي النـاس وتنصـرف ويبقـى مسـعود مـع مصطفـى وينـزل مسـعود ليفتـح الكنـز ويطلـب مسـعود مـن مصطفـى أن يعطيـه قطعـة حديـد كبـيرة ليزحـزح بهـا الغطـاء فيمسـكها مصطفـى وبـدون تـردد ينهـال بهـا علـى رأسـه ويضربـه كثـيرًا حتـى يلفـظ آخـر أنفاسـه ثـم يقـوم بـردم الحفـرة عليـه ويسـويها بـالأرض. تنتابـه حالـة مـن الهذيـان ويهيـم على وجهـه في الشـوارع يـردد أن نظلـة بريئـة وينـادي عليهـا ويطـارد النسـاء ظنًـا منـه أنهـن نظلـة ويختفـي مسـعود أسـفل تـراب المسـجد وأسـفل قطعـة رخـام مكتـوب عليهـا مقـام سـيدي عمـاد الديـن ويقـام المولـد كلَّ عـام يلتمسـون بركـة مـن بالقـبر وهـم لا يعلمـون أن بداخلـه كلبًـا.